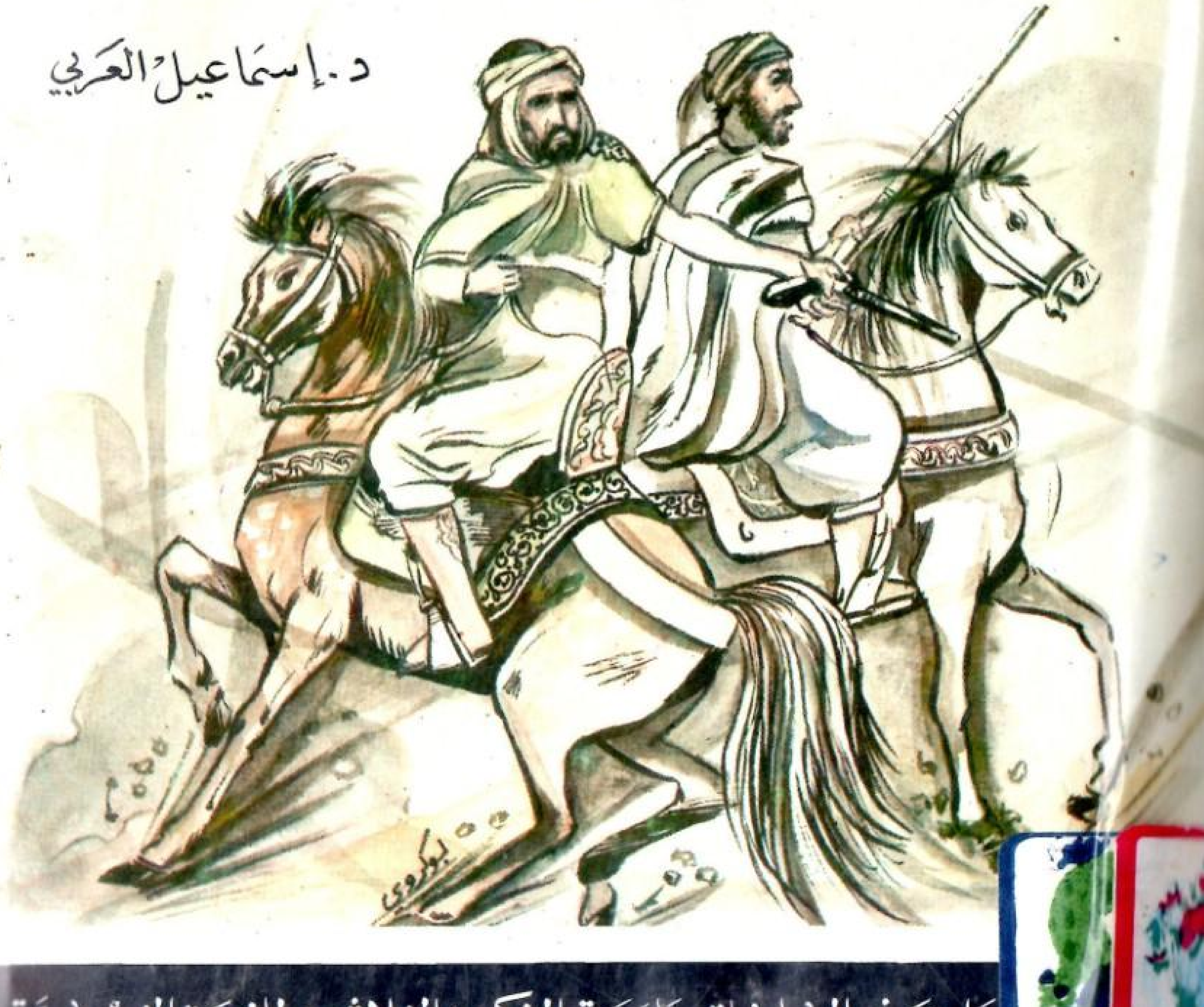
الموسوعة التاريخية للشباب

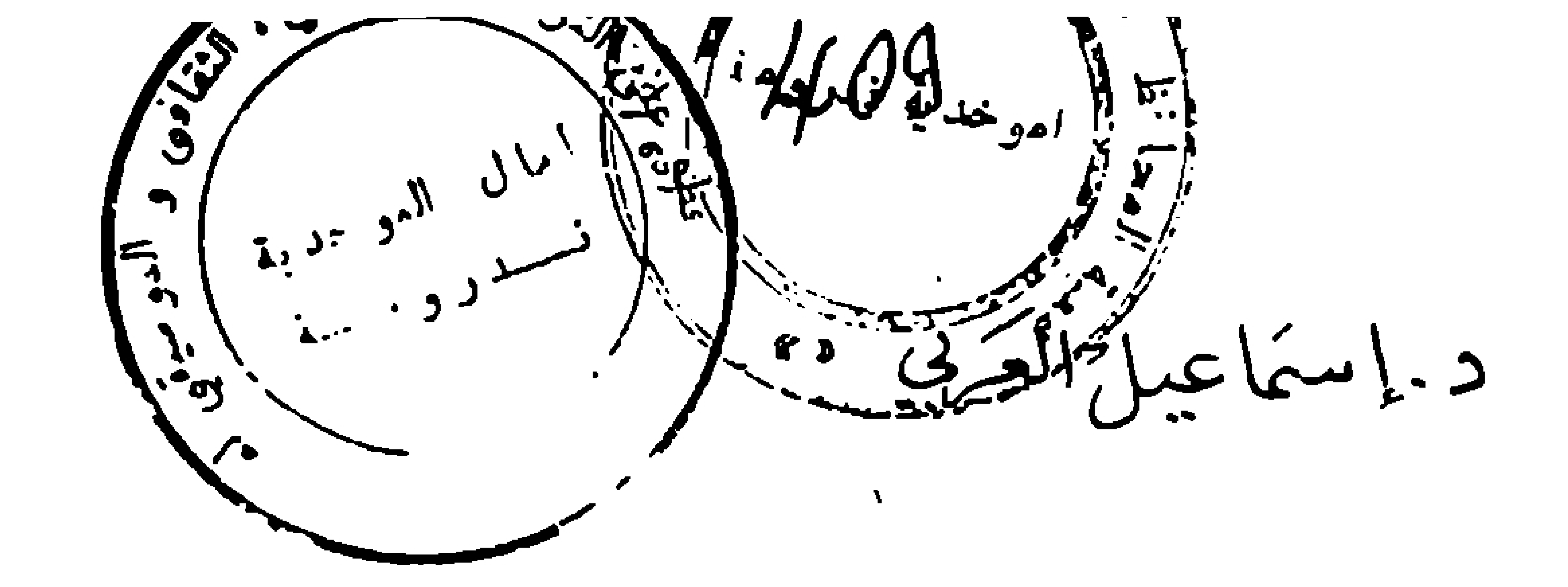
معركة سيدي ابراهيم
ومصير أسراها

د. إسماعيل العربي



صدار هذه السلسلة بمناسبة الذكرى الثلاثين للثورة التحريرية

1954 ـ 1984



معركة سيدي ابراهيم
ومصير أسراها

منشورات وزارة الثقافة والسياحة
مديرية الدراسات التاريخية واحياء التراث: الجزائر

الاشراف الفني : حسين بروبة

مقدمة الكتاب

كانت وضعية المقاومة الجزائرية تبدو في سنة 1844 صعبة للغاية في المناطق الغربية التي ركز العدو ضغوطه عليها لاعتبارات تاكتيكية واستراتيجية معا . فان هذه المنطقة كانت لاتزال تتأجج فيها الروح الوطنية على الرغم من أن الامير عبد القادر قد غادرها وعبر الحدود على رأس جيشه وادارته وذخائره واسرته ليودع كل ذلك في « دائرته » (وهي المدينة المتنقلة التي خلفت الزمالة) التي استقرت على ضفاف نهر ملوية . وشعب المغرب الاقصى كان دائما يتابع ما يبديه الشعب الجزائري من ضروب المقاومة بروح من التعاطف والتضامن الذي يمليه الدين الاسلامي والجوار والتقارب بين وضعية البلدين ازاء المطامع الفرنسية التي لا تعرف من جانبها حدودا ، واذا كانت حكومة المولى عبد الرحمن سترضخ ، عقب معركة وادى ابسلي وتقبل الشروط التي فرضت عليها في معاهدة للامغنية (أغسطس 1845) . بالالتزام بعدم تقديم أية مساعدة للمقاومة الجزائرية (المادة 4) ، فان سكان المناطق الشرقية للامبراطورية الشريفية ، كانوا لا يزالون في هذه المرحلة يمدون مقاومتنا بالتأييد والعطف بل أن بعض رجال القبائل كانوا يتطوعون للمشاركة في القتال في جيش الامير ، كما سنرى في معركة سيدي ابراهيم نفسها .

وكذلك كان تركيز العدو لقواته في غرب البلاد عاملا من شأنه أن يخفف من وطأة الضغط العسكري على المناطق الشرقية ، ولا سيما في بلاد القبائل وهناك ظل خلفاء الامير يقاومون هجمات الجيش الفرنسي بشجاعة وبطريقة فعالة ، بل ويشنون هجمات في مناطق حساسة على العدو وعلى أعوانه من المتخاذلين والانتهازيين . وبواسطة هؤلاء الخلفاء الذين يمثلون السلطة المركزية الغائبة مؤقتا ، ويتمتعون بالاستقلال الذاتي ، كان الامير يمارس سلطته القديمة وتنفذ أوامره متى أصدر أوامر.

ففي المناطق الصحراوية كانت رموز السيادة مودعة في يد محمد بلحاج الصغير الذي استقر في قاعدة الزاب ، بسكرة ، على رأس جيشه يتحدى المتعاون خليفة الفرنسيين بن قانة الذي دفع ثمن حظوته غاليا للعدو (500 أذن للمجاهدين) والذي زودته فرنسا بالقوات لاخضاع المنطقة ، ولما ظهر عجزه أمام الحاج محمد بلحاج الصغير وفقد روح المبادرة سار لنجدته الدوق دومال ابن الملك (4 مارس 1844) على رأس قوة كبيرة بهدف اعادة النفوذ المتضعضع لصنيعتهم .

وفي بلاد القبائل كان أحمد بن سالم الذي اتخذ سوق حمزة (البويرة حاليا) قاعدة له الى جانب قلعته في لخروب قوى الشوكة ويحتفظ بجيشه وتسانده روح معنوية قوية وقد وجد المريشال بيجو أنه لا يوجد من بين جنرالاته من أقدر وأكفأ منه لمواجهة هذا المرابط ومع ذلك فقد فشلت حملته فلم ينل منه واكتفى من الغنيمة بالاياب واحتلال دلس (8 مايو) .

وأما مقر ولاية تيتري فقد نقل من لمدية طبقا لاستراتيجية تعتمد على ارتكاز الدفاع على أطراف الصحراء الى الاغواط حيث كان شيخ هذه المدينة يقاوم ببسالة الصحراويين قوات الجنرال ماري وينزل

بها خسائر ، وكان ذلك على الرغم من مناوأة التجاني ، شيخ عن ماضي له فان هذا الشيخ قد استعاد الأن الدور الذي سلبه منه الامير عبد القادر بعدما خرب قصره ودمر حصونه وكأنه الطائر الاسطورى الذي ينبعث دائما من رماده !

وأما الامير عبد القادر فقد انسحب الى منطقة الحدود ليضع «ذائرته» في مأمن من مفاجئات العدو على ضفاف نهر ملوية ، بعد سقوط «الزمالة» التي باغتها الدوق دومال ، وقد كانت الدائرة تضم أسرة الامير واموال الدولة وكبار رجال الحاشية الذين تستغني عنهم الحرب مؤقتا انها الزمالة في شكل مصغر أى مدينة من الخيام وضعت تحت سلطة حاكم يحمل لقب خليفة وبضمان الأمن لاهله ولأمواله اصبح الامير خفيفا كالريح ينتقل حيث يشاء ويسدد ضرباته للعدو حيث لا ينتظره على طريقة «اضرب واهرب» .

وهذه الظروف مجتمعة هي التي استخلص منها بيجو درسا منطقيا في الظاهرة ، وهو أن المعارك الكبرى مثل معركة المقطع قد انتهت الان وأن الوقت قد حان لكي تنصرف فرنسا الى تنفيذ مشروعاته للاستعمار العسكري . وأى شيء أجلى وأدعى رضي الجندي الذي لفحته شمس افريقيا وأنهكت قوته معاركها من أن يجد عند منعرج الطريق قطعة من الارض يفلحها ويربي فيها الدجاج والخنازير ... تلك هي الاحلام التي تراود كل جندي وكل ضابط يستعد للتقاعد والتي كرس بيجو كل ذكائه لتحقيقها . ولكنه بقي أمامه عقبتان لابد من تذليلها قبل أن يظهر المخلوق الجديد الذي هو المعمر العسكري ويخرج من خيال بيجو الى حيز الوجود ، وهما الحصول على الضوء الاخضر من الحكومة الملكية من جهة وعبد القادر هذا المشاغب الذي يفسد الافراح على الناس ، والذي لا يكاد أمره ينتهي حتى يبدأ من جديد .

حمل الماريشال في حقيبته فيما حمله من المشروعات ، مشروع الاستعمار العكسي وسافر على متن سفينة عادية قاصدا الى باريس في 4 سبتمبر وقد ترك خلفا له على ادارة البلاد في مقر الولاية العامة الجنرال دولا موريسير الذي كان قائدا عاما لقوات وهران العسكرية ولما تسلم الاخير مهامه الجديدة عهد بقيادة جيش وهران الى الجنرال بوجولي . على ان بوجولى قد اضطر عقب تسلمه القيادة بالنيابة بأيام ، الى القيام بعمليات عسكرية في منطقة مستغانم ولذلك عهد بدوره بقيادة قوات وهران الى الجنرال تيبرى .

وأما قائد ناحية تلمسان العسكرية فقد كان هو الجنرال كافينياك الذي سيستغل عقابيل «سيدي ابراهيم» ليبدي ضروبا جديدة من البطولة في قتل المئات من الشيوخ والنساء والاطفال وليدفع بالباقي من ابناء القبائل الى قعر البحر . أنه رجل ليس كسائر الرجال وقائد ألف التضحية بالمدنيين حتى هانت عليه ايضا دماء زملائه من كبار الضباط .

وأياماً كان الامير فقد لاحظ هذا الجنرال في أوائل سبتمبر توترا في النفوس وتقاعسا من أعوانه من اتباع الفرنسيين ، وبحكم فراسته وخبرته عزا ذلك الى تحركات ونشاط جديد يقوم به الامير وانصاره عبر الحدود .

التحرك للمعركة

يعتبر موقع للامغنية غير صحي ، فهو وخيم الهواء كثير الاوبئة رديئى الماء ومع ذلك فقد كان هذا هو المكان الذي أختاره بيجو ، لأهميته الاستراتيجية لاقامة مركز عسكري في ابريل سنة 1844 ، لمراقبة منطقة الحدود ، وليكون مستودعا لتموين السرايا التي تقوم بالدوريات في هذه المنطقة ، ومغنية بعد ، كانت منطقة جرداء ، كثيرة الغبار خالية من وسائل العمران ، ومن ثم ، فلا غزو أن يكره المقام فيها الجنود الى درجة يعتبر نفسه معها كل من نقل اليها منفيا على أن للموقع مزية عسكرية كبيرة أهلته لأن تكون المدينة فيما بعد قاعدة للمنطقة بحيث جعلت مدينة الغزوات وميناؤها الصغير تحت سلطة مغنية الادارية .

ومنطقة مغنية العسكرية وضعت في الفترة التي تعنينا تحت قيادة الكلونيل برال الذي يبلغ التاسعة والثلاثين من

العمر» وهذا الضابط الذي سيقوم بدور (سلبي) في المعركة ، كانت حياته العسكرية محاطة ببعض المشاكل التي لم يكن أقلها شأنا أنه بقي مدة أربع سنوات خارج الجيش بعدما حصل على رتبة ملازم ، وكان ذلك بسبب تغيب مصرح به عن الجيش ، على أنه قبل من جديد في الخدمة في سنة 1836 ، والتحق بما يسمى بجيش أفريقيا طلبا للمغامرات المثيرة ، وقد نال رتبة مقدم منذ شهر مارس 1844 .

كانت القوات الموضوعة تحت أوامر برال تشمل كتيبة من قناصة أفريقيا وعناصر من قناصة أورليان والكتيبة 15 الخفيفة ، وقسما من المدفعية الجبلية .

ولكي يتجنب برال مضايقات مناخ مغنية لجيشه ، لم يترك في هذا المركز سوى حامية صغيرة ، بينما سار على رأس بقية جيشه ليعسكر في مكان يقع على مسافة 10 كيلوميترات من ندرومة التي هي المدينة الوحيدة بين الغزوات ومغنية .

وأما جمع الغزوات ، الميناء الذي كان ينطلق منه القراصنة للغزو والسلب البحري والتي أطلق عليه في عهد الاحتلال اسم «نمور» ، فهي تقع على مرفاء مفتوح للرياح ومناخ المدينة صحي منعش كأحسن ما يكون المناخ ولا

يذكر بشيء من مناخ مغنية القريبة منها ، وقد كانت لها بساتين وتحيط بها اشجار كثيرة في ذلك الوقت .

وهذه الاعتبارات التي تحبب المدينة الى نفوس رجال الجيش وأيضا لموقعها البحري كان الجنرال دولا مورسيير قد شرع في الاعمال الضرورية لاقامة مزكر عسكرى فيها عقب معركة وادي ايسلي مع المغرب الاقصى ، ولكن بيجو قرر في نهاية الامر عدم اقامة منشئات دائمة للجيش فيها . ومع ذلك ، وبالنظر الى أن العمل قد تقدم في البناء ، فقد سمح بانشاء مركز عسكري محصن فيها ، وضعت فيها حامية بقيادة الكلونيل مونتانياك الذي كان يعتبر من نخبة جيش افريقيا .

كان من الاسباب الاساسية للغليان وتاجج روح العداوة وانتشار السخط بين السكان قيام النظام المعروف باسم «المكاتب العربية» التي أصبحت الاداة المباشرة للحكم والتي يوضع على رأسها ضباط لاتزال ايديهم ملطخة بدماء العرب في المعارك . وكذلك كان هذا الحكم عبارة عن نظام للانتقام بكل ما يقتضيه ذلك من احتقار المحكوم والظلم والجور والقمع . ومنذ أوائل سنة 1845، أكتسى سخط الطبقات الشعبية مظهر دمويا كلف العدو كثيرا من القتلى كما أستشهد كثير من المسلمين .

ففي 30 يناير ، على الساعة العاشرة صباحا ، نهض 60 من السكان من تلقاء أنفسهم . وتقدموا الى حصن سيدي بلعباس فطعنوا حارس الحصن ثم أقتحموا قلعته وقتلوا عشرين من جنود الحامية ، قبل أن يأخذ الباقون اسلحتهم وينقضوا عليهم ليقتلوهم عن آخرهم .

وأخبار هذه القلاقل والاضطرابات كانت تصل باستمرار الى الامير عبد القادر الذي كان أعوانه منتشرون هنا وهناك والذي كان يراقب الحالة عن كثب ويتحين الفرصة للوثوب ، وهذه الاحداث وغيرها كانت من الاسباب التي تدفع بالساخطين والثائرين الى الدائرة لينخرطوا في سلك الجهاد ، حاملين معهم جيادهم واسلحتهم .

وفي نفس الوقت لم تكن الصلة منقطعة بين الامير والقبائل الكثيرة التي أستسلمت تحت وطأة القوة والقمع ، حيث كان يحتفظ من بينهم بكثير من الانصار ، وفي معظم الحالات من الرؤساء ، وذلك في الوقت الذي كان يبعث فيه الاعوان الى مختلف المناطق الغربية لكي يبقى على شعلة الحماس وأيضا ليعودوا اليه بالاخبار ـ أخبار العرب والفرنسيين على السواء .

كان الجنرال ، دولامور سيير قد أقام مراكز عسكرية جديدة في المناطق التي تمتد بين سبدو وسعيدة وبذلك أكمل

شبكة التحصينات التي وضعتها السلطات الاستعمارية لمحاولة منع الذخول على الامير الى التل عن طريق الصحراء ، وبناء على معرفته السابقة وتجاربه معه . كان دولامور سيير يرى أن الأمير خليق بأن يدور بهذه الحصون من الجنوب ويقتحم عليهم خطوطهم من الوراء (وهو ما سيفعله بعد سيدي ابراهيم) ، لذلك سير كتيبة تتكون من 2000 جندي وضابط ، بقيادة الكلونيل جيرى من فرندة ، في نهاية ابريل [illegible] الى استيتن وبربزنه ، وهما واحتان تقعان على التحديد ، خلف باتنة وبسكرة ، على التوالي وذلك بقصد قطع طريق الجنوب عن الامير ، وبالفعل فقد حاول الامير في المرحلة الأولى اقتحام خطوط الدفاع الفرنسية عن طريق الصحراء والاتجاه الى الشرق ، ولكنه نظرا لطول هذه الطريق وقلة امكانيات التموين ، وما يعترضها من الصعوبات ، انهك الجهد والعياء فرسانه وتخلى عنه الكثيرون ممن جمعهم من المنطقة ، ولذلك تراجع الى المغرب الاقصى .

كان هذا ايضا هو الذي تحركت فيه الظهرة في انتفاضتها الثورية المشهورة بقيادة محمد بن عبد الله المعروف باسم «بومعزة» (لانه كان قد اتخذ معزة رفيقة له في الحل والترحال) ، والذي كان يدعى أنه المهدى المنتظر ومولى الساعة .

وقد أتجه أبو معزة في المرحلة الأولى من مقاومته الى التخلص من الصنائع وأعوان الاستعمار فقطف رؤوسا عديدة منهم بسيفه ، وقد بلغ هذا الرجل الذي ينتمي الى أصل مغربي من القوة والجرأة الى حد أنه هجم على مدينة الاصنام (الشلف حاليا) المعقل العسكري الفرنسي الأول في الغرب .

كان بومعزة الذي خاض عدة معارك ، لم يكن النظر دائما حليفه فيها ، مع سانت أرنو ومع الخليفة الذي نصبه الفرنسيون على المنطقة ، وأسمه سيدي العربي ، يعمل مستقلا عن الامير ، ولكنه كان في غياب الامير نقطة التقاء المقاومة الوطنية في الظهرة ، فكان يخدم القضية بنفس الاسلوب .

ولما رجع بيجو من باريس في 29 مارس ، وجد ، منطقة الظهره وجبال الونشريس جمرة مشتعلة ، فاضطر الى الاتجاه اليها بنفسه لقمع هذه الثورة في أواخر ابريل .

كانت قوات الامير عبد القادر المرابطة على ضفاف ملوية تتراوح ـ حسب تقديرات بيجو بين 30000 و 40000 مقاتل ، ولكن منشكلة تموين هذا الجيش كانت تحدث صداعا لسلطات الأمير المختصة ، ولاسيما بعد توقيع فرنسا معاهدة ثانية مع سلطان المغرب (18 مارس 1845) .

قلنا أن نظام المكاتب العربية قد تسبب في سخط عارم بين مختلف طبقات الشعب ، حيث كان رئيس المكتب هو الذي يشرع وينفذ وارادته هي القانون ، بعيدا عن كل رقابة من السلطة العليا . ولكن هذه الفترة صادفت أيضا استيلاء المعمرين على الأراضي العمومية (البايلك) ومساحات شاسعة من الأراضي الخصبة التي انتزعوها من الاهالي قسرا وبدون اية حجة قانونية أو تعويض ، وزيادة على ذلك فقد كان هذا ايضا هو الوقت الذي اختارته السلطات الاستعمارية لتعميم نظام الضرائب . وهذه في مجموعها احداث كانت كافية لاقناع اشد المسالمين والطامعين في العدل الفرنسي بخطأ تقديرهم .

عاد الأمير الى الدائرة بعد عدوله عن اقتحام خطوط الدفاع الفرنسية من الجنوب ليتجه الى الشرق فوصلها في 20 يوليو 1845 . وجد الأمير الدائرة وقد خيم عليها شعور بالبؤس والحرمان بسبب ما كانوا يعانونه من أزمة في نقص المواد الغذائية ومللهم من حياة الغربة ، ولكن عودة الامير على كل حال اثارت في نفوس الناس الأمل والطمأنينة والثقة . فما دام هذا الرجل يغدو ويروح ويواجه العدو في عقر داره فكل شيء يهون . وفي أوائل شهر أغسطس راجت إشاعات قوية في الدائرة تقول أن الأمير يعدّ مخططا للقيام بحملة جديدة في داخل أرض الوطن . .

كانت خيام الدائرة منتشرة في مساحة في منطقة صبرة على الضفة اليسرى لنهر ملوية ، في مكان يبعد عن البحر بخمسة وعشرين كيلومترا ، وعن مغنية بمسافة 90 كيلومترا ، ومنذ الايام الأولى من شهر سبتمبر وجه الامير 300 من فرسان الجيش النظامي الى الضفة اليمنى للنهر ، حيث بقي عددهم يتزايد كل يوم بالمتطوعين من فرسان القبائل المغربية للجهاد ، وهذه التحركات في منطقة الحدود لم يكن الفرنسيون ليغفلوها من حساباتهم ، وهي على كل حال لابد وأن تكون قد وصلت الى علمهم ، لان الجنرال كافيناك قائد الناحية العسكرية لتلمسان أصدر أمرا الى الكولونيل برال بأن يلتزم جانب اليقظه والحذر في حراسة الخط الذي يمتد بين مغنية والغزوات ولكنه حذره من التوغل عبر الحدود داخل الأراضي المغربية ، ولكي يقوم الاخير بمهمته ، جمع كتيبة وسارعلى رأسها الى طرارة حيث عسكر عند سيدي بولنوار في 22 سبتمبر (أي عشية معركة سيدي ابراهيم) . وكذلك كتب الجنرال رسالة الى الكولنيل مونتانياك ، قائد حامية الغزوات يأمره بالاحتياط واليقظة ومضاعفة الحراسة .

ولكن من هو مونتانياك قطب رحي المعركة وأكبر ضحاياها؟

كان مونتانياك في الثانية والاربعين من العمر ، وقد وصل الى القارة الافريقية في سنة 1837 . كان نحيف الجسم ، قوى النشاط ، ولكنه منطويا على نفسه ، وكذلك أشتهر ببراعته في ركوب الخيال ورياضة السيف وبمهارته في أطلاق الرصاص واصابة الهدف بالمسدس كما كان رساما بارعا بحيث قيل انه كان يمكنه أن يكسب عيشه براحة بواسطة فرشته . كان مونتانياك طموحا وكان الحب الوحيد الذي عرفه في حياته هو حب الحرب والمعارك التي يخوضها كثيرا في أحلامه . ولكن حبه للعرب كان ذا طابع خاص يمتاز لا بمقارعة السيف والتراشق بالرصاص بل بالرغبة في القتل ومحو أكبر عدد ممكن من السكان العزل . وقد بلغ كرهه للعرب انه وضع مشروعا في سنة 1843 (لم يوافق عليه رؤساؤه لاسباب نجهلها يقضي بتشكيل فرقه الابادة بقيادته تتكون من 1800 أو 2000 جندي وضابط . وقد كتب رسالة الى صديق له يفسر له مشروعه يقول خصوصا : «أنني أعدك بشرفي أنه بعد مضي عامين لن يبقى عربي واحد يجرؤ على رفع أنفه على مائة فرسخ منا» .

وصف اندرى جوليان مونتانياك في كتابه «الجزائر المعاصرة» عند الحديث على موقعة سيدي ابراهيم فقال :

(كان هذا الضابط البورجوازي الطبقة متحمسا الى حد الجنون (Paranoîa) وقد تعب من حزرؤوس العرب فأصبح يتطلع للدخول في معركة معهم) .

قبض ذات يوم على احد رجال القبائل واتهمه بقتل ملازم في أوائل شهر فبراير ، وعند منتصف النهار أطلق الرصاص على الرجل بدون أية محاكمة ولو صورية ، ثم حز رأسه ونصبه على عمود في المعسكر . وعقابا له على هذه الجريمة الوحشية تلقى توبيخا من كافينياك وأمره بالحبس المنزلي مدة أربعة أيام . كان هذا في نظر القيادة العليا هو كل ما تساويه حياة عربي ثبتت براءته من التهمة التي وجهت اليه .

وفي شهر مايو من السنة سرق لنقيب في الجيش مبلغ 500 فرنك في ندرومة . ولما بلغه الخبر سار على رأس قوة تتكون من 500 جندي وضابط حتى وصل الى أبواب المدينة في الصباح المبكر دخل المدينة ووضع جنودا في مراكز ثم هدد السكان باطلاق الجنود لنهبها اذا لم يصله ذلك المبلغ في ظرف نصف ساعة . وعقب ذلك بلحظات سلم السكان اليه المبلغ المطلوب . وبعد ذلك بوقت قصير كتب الى أحد أقاربه يروى اليه القصة ويعلق قائلا : لقد حصلت على المبلغ وبدون ذلك لم أكن لأحصل عليه حتى الان ، بل ولربما لن أحصل عليه أبدا . لن اتصرف بعد الان الا بهذه

الطريقة ، مهما يقل الحذرون ومحبو الانسانية مثل الجنرل كافنياك ....) .

وفي رسالة الى أخيه في سنة 1845 كتب يقول :

« سوف تقرأ يوما في الصحف اخبارا تصفني بالوحشية وتندد بقسوتي ... ياله من اجرام أن تقتل رجلا لاذنب له الا كون طبيعته تدفعه الى اغتيال فرنسي ... » .

وذات يوم قصد الى دار قايد متعاون عند منتصف الليل ليلقي القبض عليه فوجده قد هرب ولم يبق في المنزل سوى النساء والاطفال فقبض عليهم جميعا في ليلته تلك . ومن غريب الأمور أنه كتب يؤنب نفسه ويعرب عن ألمه .

« قبضت على جميع هؤلاء الاشخاص وسقتهم بالليل في الظلام على أقدامهم والمطر يهطل ، حتى الحصن ... كان قلبي يدمى لمنظر البنات الصغيرات وهن يركضن في الوحل والاحراش ... كنت في كل لحظة مضطرا الى استعمال هذه الوسائل التي تحطم قلبي .. لكي أعاقب بعض المجرمين ، ولقمع السكان المضطربين الذين لا يفهمون الا هذا العدل الدامي ... وهذه الاعمال ليست شيئا يذكر اذا ما قيست بما كانوا يذوقونه على يد رؤسائهم السابقين في نظام الاتراك أو نظام عبد القادر .

وقبل أن يخرج لمعركة سيدي ابراهيم بوقت قصير كتب يقول :

«أنني تعب جدا من دور المحارة في القشرة الذي العبه في الغزوات يجب أن أخرج من هنا ، فإن قلة العمل تقتلني» .

كان مونتانياك يشكو كثيرا من ضعف مستوى كفاءة القوات التي وضعت تحت قيادته ولذلك شعر بغبطة كبيرة عندما وصلته في شهر اغسطس الكتيبة الثامنة من قناصة أورليان ، وهذه الكتيبة مضافا اليها كوكبة من فرسان الهوسار تتكون من ضابطين و 67 فارسا ، وقوة من سلاح المدفعية وسلاح المهندسين وعناصر من تشكيلات ، هي التي تشكل الجيش الذي يتكون من 10 ضباط ومجموع 413 مقاتلا تشكلا والذي خرج الكولونيل مونتانياك على رأسه الى معركة سيدي ابراهيم .

كانت كتيبة قناصة أورليان تحت قيادة الكومندان فرومن كوسط الذي تخرج من مدرسة سانسير الحربية في سنة 1823 ، وقد تولى هذه القيادة ابتداء من سنة 1842 ، كان هذا الضابط مشهورا بالذكاء وقد حصل على عدة أوسمة تقديرا لكفاءته وشجاعته وكان مرشحا لرتبة ليوتنان كلونيل ، على الرغم من أنه لم يتجاوز الأربعين من العمر .

ومن بين الضباط الذين سيمثلون دورا في مأساة سيدي ابراهيم ، نذكر جيرو الذي تخرج من مدرسة سانسير الحربية في سنة 1835 ، وكان مشهورا بالحيوية والنشاط . والاقدام والحماس ، وخصوصا بالبراعة في اصابة المرمى ، والنقيب جانيل سانت الفونس الذي هو ابن قائد فيلق في عهد نابليون ، وهو كذلك ابن معنوي للملك السويد ، وقد كانت سنه لا تتجاوز الخامسة والعشرين ، فكان بذلك أصغر نقيب في الخيالة الفرنسية ، وقد شارك في معركة وادي ايسلي ونال وساما فيها .

وكان في معية مونتانياك عند خروجه من الضباط ايضا الملازم كلاين الذي تطوع في الجيش في سنة 1825 ودخل في الحرس الملكي ، قبل أن يأتي الى افريقيا والمترجم ليفي الذي هو من أصل اسرائيلي ، والطبيب الضابط زوزاجيتي الذي دخل الى الجزائر في سنة 1836 ، وكان يرافق كتيبة قناصة أورليان في جميع تحركاتها منذ سنة 1842 .

كانت نظرة برال ومونتانياك تختلفان كثيرا بشأن تقدير الوضعية في المنطقة بصفة عامة ، وعلى الحدود بصفة خاصة . فبينما كان برال يعتقد أن الأمير على وشك التحرك لتأديب القبائل المستسلمة (وهذا ايضا كان رأى كافينياك) فاذا بمونتانياك الذي يعرف ببعض خرجات الامير في أوائل

سبتمبر ، يعتقد أن البلد ، فيما عدا ذلك هادىء ولكن قلق برال وكافينياك سيجد ما يبرره في الاسبوع الثالث من نفس الشهر ، كما أن مونتانياك سيدفع ثمن غلطته غاليا .

وفي 21 سبتمبر كتب الكولونيل مونتانياك الى كل من الرائدين كوربي دوكتور وفررمن كوسط يأمره بالاستعداد للخروج معه على رأس قواته على الساعة العاشرة ليلا وأن يحمل معه كميات من التموين تكفي لمدة يومين ، وقد جهزا الضابطان لهذه الخرجة جميع الرجال القادرين ، وقد حمل السلاح مع الذخيرة والتموين المطلوبين . وفي ليلة 21 ، 22 سبتمبر خرج مونتانياك على رأس الجيش الذي سبق ذكر عدد قواته ، ومع الجيش قطيع من الغنم يتكون من 16 خروفا للتموين .

كان الليل مظلما ولكن الطقس معتدلا والسماء صافية واتخد الجيش اتجاها جنوبيا غربيا ، فاجتاز بلاد السوهالية ، ومن هناك شاهدوا نيرانا على قمم التلال المجاورة هي اشارة الخطر ، اشعلتها القبائل الفارة في وجه الزحف العسكري لانذار القبائل الاخرى .

وقبل طلوع النهار بساعة واحدة وصل الى المعسكر عدد من رؤساء القبائل المستسلمة لمقابلة مونتانياك الذي اعربوا له

عن مخاوفهم وقلقهم وزوده ببعض الأخبار عن تحركات الأمير عبد القادر.

وفي صباح يوم 22 سبتمبر استدعى مونتانياك لمقابلته كوري دوكتور وفرو من ـ كوسط ليخبرهما أن الجيش سيبقى ساعة في مكانه ريثما يتناول الجنود القهوة. وكذلك ابلغهما المعلومات التي قدمها اليه الزوار من رؤساء القبائل الموالية من أن الامير عبد القادر يتجه الى الشرق، وأنه سوف يقضي ليلة الغد في سيدي بوجنان، وفي معيته جيش يتراوح عدد رجاله بين 1000 و 1200 مقاتلا وهذه المعلومات أثلجت صدر الكلونيل والضابطين فإن تفوق جيش الأمير على قواته بنسبة 1 ـ 3 عامل من شأنه أن يعطي لانتصارهم عليه قيمة أكبر وذلك حتى لو فاتهم القاء القبض على الأمير (وهو أمر صمم عليه مونتانياك منذ زمن). وحتى يحتاط للامر الاخير اضاف القائد قائلا: «اذا كانت هذه المعلومات صحيحة، فسيكون معنى ذلك قيام ثورة عارمة، وبالتالي قد لا أتمكن من القبض على الأمير ...».

وهكذا تحفظ الكلونيل مونتانياك وحسب الحسابات، فلم يبع جلد الدب قبل أن يصطاده، ولو أن ذلك في نيته أمر ممكن.

وبعد أنتهاء ساعة القهوة سار الجيش في اتجاه الجنوب الشرقي ، وفي غضون هذه المسيرة علم مونتانياك أن الأمير يوجد غير بعيد منه . وعلى الساعة الواحدة وصل الى وادى طاولى حيث أمر بالتوقف وضرب معسكر . وعند هذه النقطة كان الجيش الفرنسي قد أقترب من الطريق التي سيسلكها الامير بنحو 5 كيلو مترات .

نصب معسكر الجيش الفرنسي على الضفة اليمنى لهذا النهر الصغير ، على مسافة 1 كيلومتر من دار تسمى « دار سيدي بورحال » وعند هذه النقطة بالذات يتغير اسم الوادى ليدعي «وادي بن دفال» بعدما يكون قد تلقى مياه وادي سيدي موسى العنبر ووادي مطوس » .

وضع القائد مونتنياك حرسا من الفرسان على المرتفعات المجاورة وسمح للجيش باستراحة . وعلى الساعة الثالثة أعطى أمرا بذبح خروف لاعداد الطعام ، وفي الوقت نفسه ظهرت سرايا فرسان الأمير عبد القادر في الشرق على قرن انسلم ، غير بعيد من مقام الوالي سيدي موسى العنبر . أخبر القايد محمد طراري الذي كان يعمل دليلا للجيش الفرنسي في خرجته هذه أن هؤلاء الفرسان ينتمون الى جيش الخليفة بوحميدى ، خليفة تلمسان سابقا ، وانهم يقومون بمراقبة تحركات الجيش الفرنسي ، وكذلك أكد التقديرات السابقة

لجيش الأمير (1000 ـ 1200) ، واضاف هذا الشخص أن الأمير لابد وأن يكون قريبا من البوحميدى وفي أثره ، وأنه ينوي قضاء ليلة الغد في سيدي بوجنان .

وبعد اجتماع مونتانياك بالقايد الطراري بلحظات تلقى رسالة من الكومندان كوفين الذي عينه في منصب القيادة خلفا له في الغزوات خلال مدة غيبته ، يخبره فيها أن القايد محمد ، قايد بني منير قد أبلغه أن الأمير عبد القادر قد وصل الى المنطقة وأنه سوف يقضي ليلة 22 ـ 23 عند أبار سيدي بوجنان . وأضافت الرسالة أن الأمير يسير على رأس جيش كبير ، أن قبيلتي أولا رياح وبني ملوك قد كلفت بتوفير المؤن لهذا الجيش ، وأن قبيلة بني منير المتعاونة مع الفرنسيين قد التجأت الى الجبال المجاورة للاعتصام بها خوفا من بطش الأمير .

وعلى الساعة الرابعة جاء أحد الفرسان الذين كلفوا بالحراسة على التلال المجاورة الى مونتانياك ليخبر بأنه شهد جماعة من العرب يسيرون في اتجاه المعسكر فبعث القائد ضابطا ليتأكد له من جلية الامر . لم يكد هذا الضابط يصل الى المرتفعات المجاورة حتى شاهد نحو 30 فارسا يقتربون منه ويحاولون الاحاطة به ، فتراجع الى المعسكر ليخبر بما حدث ، ورجع الفرسان أدراجهم .

ولكنه بعد ذلك بوقت قصير ظهر نحو 30 فارسا آخرين في الافق على قمة جبل كركور ، وقد تبين الفرنسيون أن بعضهم من المغاربة استنادا الى لباس الرأس .

وجه مونتانياك إليهم فصيلة من القناصة . في الوقت نفسه وجه الكولونيل رسالتين احداهما الى الكلونيل برال والاخرى الى كوفين يخبرهما فيهما أنه الآن يواجه معركة مع الامير ويطلب الى الاخير تزويده بالتموين لمدة يومين .

وفي هذه الاثناء حضر طفلان بريئان الى المعسكر الفرنسي ليعرضا على الجنود بيع قطعتين من الدجاج . وفي غضون المساومات سأل الطفلان عما اذا كان الجيش يحمل معه مدافع . ولما أجيبا بالايجاب قالا أنهما لا يشاهدان مدافع ، فقل لهما ان المدافع مستورة تحت الاشجار . ولما أبلغ مونتانياك هذه القصة وبحث عن الطفلين كانا قد أختفيا تماما ، وعندئذ فهم الفرنسيون أنهما جاءا ليتجسسا لحساب الامير .

والواقع أن رجال الأمير كان في أستطاعتهم أن يحصوا من مواقعهم على الجبل عدد جنود العدو وجيادهم ولكنه لم يكن في استطاعتهم أن يعرفوا ما إذا كانوا يحملون معهم مدافع قد يكونون أخفوها بعناية .

أياما كان الأمر ، فأن مونتانياك قد أصدر أمر الى الجيش بأن يكون على استعداد لرفع المخيم على الساعة الحادية عشرة ليلا ، كما أوصاهم أن يوقدوا نيرانا ويتركوها مشتعلة عند الرحيل . وعند الساعة المذكورة تجهز الجيش للرحيل في صمت وبدون ضوضاء أوجلبة ، ونيتهم أن يوهموا الأمير بأنهم مقيمون في مكانهم .

*

* *

المرحلة الاولى
من المعركة

أتخذ جيش منتانياك اتجاه الجنوب الشرقي ، وقد تولى القايد محمد الطراري اشعال النيران هنا وهناك في المعسكر سار الجيش في صمت تام بقصد اخفاء الرحيل عن الجزائريين ولكن هؤلاء كانوا ساهرين ويراقبون المعسكر بصفة دقيقة . وعند ما غادر المعسكر آخر جندي سمع الفرنسيون في مؤخرتهم دوي عيارين نارين كانا بدون شك اشارة متفقا عليها لاعلان تحرك الجيش .

صعد جيش موتنانياك عقبة موسى العنبر وسار في اتجاه أميل الى الجنوب ببطء شديد حيث أنه لم يصل الى سفح جبل كركور الشمالي الشرقي الا بعد ساعتين ونصف بعد رفع المعسكر . وفي هذه المسيرة هرب القايد محمد الطراري . وهذه الحادثة كانت بمثابة انذار لمونتانياك بالخطر المقترب .

وكذلك قرر على الساعة الثانية نصب معسكره حتى يتيح للجنود قسطا من الراحة في بقية الليل .

نصب المعسكر قريبا من قبة ولي يدعى سيدي موسى العنبر ، وقد منع مونتانياك اشعال النار أو التدخين في المعسكر وعلى الرغم من تقدم الليل والمشي عدة كيلومترات فان النوم لم يداعب جفون الجنود . فقد كانت الاخبار القائلة بحلول الأمير على مقربة منهم والأعيرة التي استقبل بها رحيلهم قبل منتصف الليل ثم اختفاء دليل الجيش القائد الطراري الذي تركهم يتيهون في أرض مجهولة كلها نذر بعثت في نفوس رجال الجيش شعورا من التشاؤم والقلق ، ومما زاد من تكثيف هذا الشعور التزام القائد الصمت والتحفظ التام بحيث لا يعرفون في أى اتجاه يقودهم ولا أى مخطط ينوي تنفيذه ، ولما طلعت الشمس بدد بعض القلق والوساوس التي تساور نفوس الجنود ، وبينما كانوا يتناولون القهوة ، كان مونتانياك يختبر الاراضي المجاورة . ولما أتجه نظره الى الغرب استطاع أن يتبين فريقا من الجزائريين غير بعيد من الطريق التي سلكها في الليلة الماضية وكان يبدو عليهم أنهم يراقبون المعسكر من قلة من قلل جبل كركور ، وبعضهم جالس والبعض الآخر يركبون جيادهم .

وكان مونتانياك يرى في الهجوم على العرب الذين

لايعرف عددهم وفي أراضي مجهولة وسكان يضمرون له شعور العداء ، أمر ينطوي على كثير من المخاطر . ولذلك وجه رسالة الى برال يطلب اليه انجاده بدون تأخير . ولكن حامل الرسالة كان من العرب المتعاونين مع الفرنسيين وقد تعرض له العرب وأخذوا الرسالة منه واستبقوه عندهم .

وعلى الساعة السادسة والنصف صباحا أصدر مونتانياك أمرا الى الضابط كوربي دوكونار لان يستعد لامتطاء صهوة جواده على رأس الهوسار ، على أن تتبعهم ثلاث سرايا من القناصة بدون أكياس الزاد تحت أوامر النقيب شارجير . وأما الرائد فرومن ـ كوسط ، فقد تلقى أمرا بأن يبقى في المعسكر على رأس بقية تشكيلات الجيش على أن يرعوا البغال واثقال الجيش .

وأما مونتانياك فقد سار على رأس قوة من الفرسان صاعدا وادي مطوس غير بعيد من مقام سيدى طاهر ، وكان الفرسان يمشون ويقودون جيادهم تجنبا لاثارة شعور الخوف في الاهالي حتى لا يهربوا أمامهم . ولكن مونتانياك لم يسر أكثر من عشرة قائق حتى شاهد أولئك العرب الذين يراقبون معسكره يقفزون على جيادهم جميعا ويتعقبون على الذروة المشرفة على الوادى . من الغرب ، وعلى الفور أصدر

أمرا الى كوربي دوكونور بأن يتجه الى أولئك الفرسان ويشتت جمعهم .

قفز الرائد على جواده وأخذ يتسلق الجبل مع رجاله ولما وصل الى القمة أخذ في مطاردة الفرسان العرب الذين أطلقوا أعيرة نارية ثم أنسحبوا الى جماعات من المقاتلين كانت تختفي وراء الاشجار والصخور . ولكنه حتى هذه اللحظة لم يجد كوربي دوكونور ورجاله أمامهم أكثر من 200 من المقاتلين العرب . وهذا الاعتبار شجع الضابط على أن يواصل زحفه ويتقدم الى الامام .

على أن الوضعية لم تلبث أن تغيرت ، فان اعدادا كبيرة من المشاة أخذت تظهر هنا وهناك فجأة كما أن عدد الفرسان أخذ يتزايد بصورة تدعو إلى القلق ، واصل الضابط القتال والهجوم بعنف ولكنه لاحظ أن قواته تتكبد خسائر كبيرة ، أزدادت المعركة حدة وضراوة خصوصا بسبب شعور العرب بحضور الأمير بينهم ، فأصبح الهوسار يلتزمون الآن موقف الدفاع عن النفس . ولما تدخل مونتانياك لانجاد ضابطه تعرضت قواته لنفس الهجوم العنيف ، ولم تلبث أن اسفرت على اصابة ثلاثة ضباط فاصيب النقيب سانت الفونش برصاصة في الرأس ، وأما الملازم كلاين أصيب بعدة جراح

ومات متأثرا بها ولكن كوربي دوكونور لم يصب بأذى وكان يقاوم بشجاعة ، ولكن فرسه لم يلبث أن أصيب برصاصة في رجله اليمنى الامامية ولما شعر بالم الجرح قفز الى الامام في اتجاه العرب ثم أصابته رصاصة أخرى فوقع على الأرض براكبه ، ونهض الضابط بصعوبة من كبوته . ولما شاهده أحد رجاله من الهوسار في هذه الحالة سارع اليه ونزل عن فرسه وقدمه اليه قائلا : خذه ! فأنت الوحيد الذي تستطيع انقادنا «أخذ الضابط الفرس أمتطاه على الفور ، ولكن العرب سارعوالمطاردته .

استطاع كوربي دوكونور أن يجمع حوله من بقي من الهوسار ويقوم بمجاولة لهجوم ، ولكن هذه القوة التي أصيبت في الصميم لم تتمكن من المحافظة على تماسكها ، فراحوا يقاتلون جماعات صغيرة تتكون من 5 و6 أفراد بعدما تركوا جيادهم في معظم الحالات أو قتلت جيادهم ، وكان البعض يقاتلون افرادا حتى يقتلوا .

فكر كوربي دوكونور في الانسحاب بقواته الباقية لحظة ولكنه سرعان ما ادرك انه لا يستطيع التراجع في اتجاه قوة المشاة التي تقع بعيدا حيث أنه يفصل بينهما وبينه واد صعب كان واثقا من أن العرب سوف ينقضون عليه ويسحقونه قبل أن يصل اليهم ، ودون أن يتمكن من الدفاع عن نفسه ،

القى الضابط الذي يجد نفسه في مأزق حرج نظرة متفحصة على الأرض المجاورة فلم يجد سوى مكان واحد قد يعصمه من الهلاك ، وهو عبارة عن هضبة ترتفع خلفه على مسافة كيلومتر واحد الى الجنوب الشرقي ، وهناك سينتظر التحاق قوة المشاة به وفي نيته أنه اذا لم يكن من الممكن دحر عدوه الذي أخذ بمخانقه فلا أقل من أن يبيع حياته بثمن غالي وكذلك أتجه الى تلك الهضبة التي بني عليها الفرنسيون بعد ذلك نصبا تذكاريا للكلونيل مونتانياك ، وفي اثر مابقي من كتيبه الهوسار .

اختط الضابط طريقه بمشقه بين العرب الذين يعترضون لاحباط خطته والذين يطاردونه من الوراء ، وبعدما قطع مسافة قصيرة شاهد قوة المشاة تتجه اليه وهذه الحركة كانت مفأجاة للغرب الذين أهملوا هذه القوة ولم ينتهوا اليها الا في اللحظة الاخيرة ، وقد كان ذلك سببا في وقوع الارتباك وتوقف اطلاق النار وقتا قصيرا وهذه كانت فرصة استغلها كوربي دوكونور وتسلق الهضبة بدون صعوبة .

وفي هذه الاثناء أندفعت قوات الامير النظامية والمجاهدون من رجال القبائل كالسيل العارم ومن جميع الجوانب ، خصوصا من منحدر الوادي الصعب ، وأخذوا يوجهون نيرانهم المحكمة . الى الهوسار . وهكذا فقد الرائد

فرسه الثاني الذي أصيب بعدة رصاصات ، اتجه الى شعفة الجبل ولم يبق معه من الهوسار سوى ثلاثين نفر جميع جيادهم مصابة بجراح .

وفي هذه الاثناء وصل الى الشعفة الكلونيل مونتانياك عارى الرأس ويده على الجرح الذي أصابه في بطنه ومعه سرية من الهوسار ، وقد كان يبدو عليه أن جرحه بالغ الخطورة

جلس الكلونيل مونتانياك على الأرض وأخذ يصدر أوامره لادارة القتال بالرغم من الآلام الفضيعة التي كان يعاني منها ، كان يعطي الاوامر بصوته ومتى عجز عن النطق كان يصدر الاوامر بالاشارة باليد . وعندما عاد كوربي دوكونور من الجانب الجنوبي للهضبة حيث كان يحاول مدة بضع دقائق صد هجوم العرب وجد قوة المشاة مشتبكة مع الخيالة العربية . وعند هذه المرحلة كان الوقت قد فات لانقاد شيء من المعركة . واللحظات التالية وصفها كوربي دوكونور بأنها «عبارة عن منظر مهيل لمجزرة فضيعة (فان قوة المشاة التي كان أفرادها يسيرون بخطوات سريعة فقدو النظام ولم يتمكنوا من تشكيل صفوفهم . وفقد النظام هو أسوا ما يمكن أن يصيب جيشا في حرب ، وبذلك كانت مهمة سحقهم أسهل نسبيا .

حاول الملازم الأول لارازيت على رأس فصيلة من المشاة منع العرب من أحداث ثغرة فيما بقي من الهوسار والاحاطة بكل واحد من قسميها على انفراد ولكنه فوجيء بضربتين بالسيف وسقط على اثرهما بين جثث القتلى يتخبط في دمه . وكذلك سقط في أثره الملازم ريمون لاسبور.

قام النقيب دوشارجير بمحاولة لجمع اشتات القناصة ليكون منهم تشكيلة مربعة حتى «يقاتلوا ويموتوا والسلاح بايديهم وعندما عرض عليه العرب الذين أحاطوا به الابقاء على حياته ، اجابهم بكل عجرفة : (كلا انني أفضل أن يهرس لحمي على أن استسلم) وهكذا قتل عقب ذلك بلحظات ، واحيط بالقناصة من كل جانب وراح العرب يقطفون الرؤوس التي يدافع أصحابها عن انفسهم بشجاعة واستماتة .

ولما راى مونتانياك أن الحالة ميؤوس منها وجه الحديث الى جندي اسمه باربوت ، كان يقاتل بشجاعة نادرة مع كوربي دوكونور ، قال له :

سيدي باربوت ، اذهب الى المعسكر الذي خرجنا منه على الساعة السادسة والنصف صباح اليوم ـ اسرع المشي أبلغ الكومندان فرومن ـ كوسط أنني جريح جرحا قاتلا

وأطلب إليه أن يحضر شخصيا لكي يتولى القيادة بدلا مني ، وأن يوجه الينا نجدة على جناح السرعة . »

اسرع باربوت الخطي ولا يرافقه الا مقاتل واحد من الهوسار وقد لاحقهما العرب بنيرانهم ولكنهما نجيا ووصلا الى المعسكر.

وفي هذه الأثناء تجمعت قوة من الهوسار والقناصة على الهضبة بعد نداء من الكومندان كورني دوكونور ، فاصبح تحت أوامر هذا الضابط قوة تتكون من ستين مقاتلا ولكن العرب لم يلبثوا أن أحاطوا بها .

وفي هذه الحالة لم يكن أمامهم الا الاستماتة في الدفاع وكانت القوة المحيطة بهم من جيش الأمير النظامي ، وكان الفرنسيون يسمعون بين الفينه والفينة دعوة الى القاء السلاح والاستسلام « ماكاش البارود ، استسلموا ولكن تعصب الغزاة وتصلبهم جعلهم لا يردون على هذه الدعوة الا بطلقات البنادق ، ولم يستسلم واحد منهم صحيح أن مونتانياك الذي كان في النزع الاخير ، كان يشجعهم بعبارات هي اليق بالمجانين مثل تشجعوا ايها الاطفال انكم ترون أن الرصاص غير مؤذ . » ولكي يكسب لحظات من حياته ويعيش في بركة الدماء التي طالما أراق مثلها بغزارة ، وضع مونتانياك منديله بين حزامه وبطنه ليوقف نزيف الدماء .

ان لون وجهه لم يتغير وعيناه تلمعان دائما كشرارة من الجحيم الذي ينتظر الغزاة الظالمين ، ولكن قوته راحت تخونه تدريجيا حتى وجد مستلقيا على الأرض ، وهو يردد كلماته الجوفاء لدعوة جنوده الى الانتحار ، قائلا : «الشجاعة ، الشجاعة ، أيها الاطفال لم ينتظر الرائد فرومن ـ كوسط أوامر مونتانياك ليهرع لنجدة زملائه في المعركة القاسية فبعد رحيل الكتيبة عن المعسكر بوقت قصير ، بعث باحد الضباط ليصعد على احدى الهضاب ليتتبع ما يجرى على مسرح القتال ويعود ليخبره بتطورات الموقف ، ولما عاد هذا الضابط ، اسمه شابدلين واخبره بما رأى ، علم أن الجيش في خطر وهكذا سارع على رأس القوة التي تحت أوامره وأصطحب معه النقيب دوتر وترك الضابط جيرو والملازم شابدلين والطبيب روزجيتي والترجمان ليفي لحراسة المعسكر وعلى مسافة من المعسكر التقي فرومن ـكوسط بباربوت الذي بعثه مونتانياك لطلب النجدة ، أبلغ باربوت الرائد أوامر مونتانياك وشرح له الحالة الفضيعة التي يوجد فيها الجيش ، وقد كان هذا الوصف مدعاة لغذ السير والاسراع بالنجدة قبل أن يفوت أوأن فائدتها .

وبعد مسافة قصيرة التقي الضابط فرومن ـ كوسط بأحد انفار الهوسار واسمه ، ميتز وقص عليه كيف انه عندما

كانت المعركة في أوجها ترك رفقاءه لحظة ليعالج جراح ضابطه ، الملازم كلاين الذي نقله الى جانب الهضبة وأرقده على الأرض وضمد جراحه ولكن كلاين لم يلبث أن لفظ انفاسه عندما أقتربت القوة التي يقودها فرومن ـ كوسط من مسرح القتال ، كانت المعركة على وشك الانتهاء ، وكان جيش الأمير عبد القادر يطهر الجيوب الاخيرة من مقاومة كان قبل بضع ساعات جيشا يزهو ويتبختر بالموسيقي والاعلام النياشين والقبعات التي تزينها الخيوط الذهبية ، كل كذلك أصبح الآن جزءا من التراب الملوث بالدماء فان جميع أفراد قناصة أورليان الذين صمدوا أمام خيالة الجيش النظامي الجزائري لم يبق رجل واحد منهم واقفا على قدميه ، والذين لم يقتلوا منهم مستلقون في أرض المعركة يئنون من جراحهم أو سقطوا أسرى في ايدي أعدائهم .

ولكنه بقي على الهضبة التي سقط فيها قائد الجيش مونتانياك حوالي خمسة عشر نفرا من الهوسار والقناصة وكان من الواضح أن مصيرهم الهلاك اذا لم تصلهم النجدة بسرعة .

ولما بقي بين فرومن ـ كوسط والهضبة نحو كيلو متر ، ظهر أمامهم فجأة أحد رجال الهوسار وهو يعدو مسرعا بجواره ، ووجهه يسيل بالعرق وتعلوه طبقة من الغبار . وعندما اقتربوا

منه سألوه : الى اين تريد ؟ فأجابهم بكلمة واحدة . «لقد أنتهى كل شي» . ثم وصل عدوه في اتجاه المعسكر .

وهذه الكلمة كان لها وقع الصاعقة بين الجنود الذين سرت في اجسامهم قشعريرة عامة وكأنها تيار كهربائي ، كيف يتبخر في الطبيعة جيش شائك السلاح قوي التدريب والتنظيم وينتهي كل شيء هكذا في بضع ساعات ؟ ماذا سيكون مصير هذه النجدة والحالة هذه تلك وغيرها ، هي الاسئلة التي تتردد في نفس كل واحد من هؤلاء الجنود الذين لا يعلمون رسالة تستحق أن يدفعوا أرواحهم من أجلها ، سوى رسالة الاستعمار والتسلط على الشعوب . وعقب ذلك بعث فرومن ـ كوسط النقيب برجار مع باريوت ليصعد على هضبة وينظروا منها إلى مسرح المعركة ، وقد عاد ليخبر بأن تلك الحفنة من الرجال لا تزال تقاوم وانها تتعرض لهجوم ثالث أعنف وأقوى .

كانت هذه المعركة ضارية حيث كانت هذه الحفنة مستميتة ، وكان قائدها ، كوربي دوكونور قد أصيب بثلاث رصاصات وسقط على الأرض مضرجا بدمائه ، ولما أصبحت هذه القوة من الجنود بدون قائد أصبحت مهمة للتخلص منهم أسهل ، كان عدد الاسرى منهم 11 نفرا وكانوا جميعا

قد أصيبوا بجراح بالرصاص أوالسيف والخنجر وكان أحدهم وهو برتبة عريف قد أصيب بعشرة جراح .

كان الضابط دوكونور طريحا على الأرض مضرجا بدمائه فاقد الوعي ، وكان أحد الجنود على وشك أن يجهز عليه عندما رآه الخليفة البوحميدي الذي قتل فرسه تحته في معركة وأصيب بجرح في ركبته عندما كان يقود الهجوم على الهوسار ، ولما شاهد نياشين الضابط اوقف ذراع الرجل الذي يريد أن يجهز عليه ، وأمر أحد ضباط الخيالة النظامية بان ينقل الرائد على فرسه ويخرجه من ميدان القتال ويعالج جراحه ثم يسلمه الى الأمير عبد القادر ان كان لا يزال على قيد الحياة .

أدرك فرومن ـ كوسط أن كل شيء قد أنتهى الآن في مسرح المعركة فاراد أن يحافظ على سلامة السريتين اللتين تحت قيادته ، فقرر أن يتراجع بهما الى معسكر سيدي موسى لينظم الى الضابط جيرو ولكنه لم يمش في هذا الاتجاه أكثر من ربع ساعة حتى أنقضت عليهم قوة من خيالة الامير كانت نزلت من الجبل واتجهت الى معسكر الجيش الفرنسي في سيدي موسى العنبر وخربوه وقتلوا حرسه فهجموا عليهم . أخذ فرومن ـ كوسط ورجاله يدافعون عن أنفسهم بجرأة وشجاعة ولما رأى أن العرب يوشكون أن

يحيطوا بهم أمر بتشكيل مربع دفاعي ولكن لم يكد يتم اصدار أمره حتى أصابته رصاصة في رأسه وسقط على الارض ومات في اللحظة .

تولى القيادة عقب ذلك النقيب دوترتر الذي أمر بمواصلة حركة التراجع حسب ما خططه سلفه . كان ضغط المجاهدين قويا على هذه القوة الى درجة أنهم لم يكونوا يجدون الوقت الضروري لاعادة تعمير بنادقهم وقد أضطروا الى الدفاع عن أنفسهم بالسلاح الابيض ، مقتصرين على محاولة صد أشد المهاجمين جرأة ، ومرة أخرى أضطرت القوة الى تشكيل مربع للدفاع وبعد ذلك واصلت مسيرتها العاثرة ولكن قائدها الجديد ، دوترتر ، سقط بدوره بعدما أصيب بعدة رصاصات ، احداها أصابته في بطنه والأخرى في رأسه .

وفي هذه الاثناء كان عدد المجاهدين المهاجمين يتزايد باستمرار . أصيب النقيب بورجار برصاصة كسرت فخذه ووقع على الارض ، وكان هو الذي تولى قيادة القوة بعد دوترتر . ولما حاول زملاؤه اسعافه ونقله صدهم قائلا : «لا فائدة سأموت في هذه الاحراش وسوف نلتقي في السماء ...» ، ولكنه لم يكد ينتهي من النطق بهذه الكلمة حتى أصابته رصاصة أخرى أردته قتيلا في الحال .

وبعد ذلك تجمع رجال القناصة تحت قيادة المساعد ثوماس والرقيب باربوت الذي قتل جوادم تحته .
وللمرة الثالثة شكلت مربعا للدفاع واستمروا على القتال . عبثا كانوا يحاولون تعمير أسلحتهم ، فقد كان ضغط المهاجمين العرب من القوة بحيث لا يجدون الوقت لذلك .

بدا الاضطراب يدب بين أفراد هذه القوة الذين لا يزالون على قيد الحياة ، فاختل نظامهم ، وكان كل واحد منهم يقاتل ، لانقاذ جلده ، ولكن الرقيب سانت مارتن حاول أن يعد رفقاؤه الى النظام فصاح فيهم بأن يستعملوا السلاح الابيض . وبدفعة قوية نجحوا في ابعاد المهاجمين مسافة 50 أو 60 مترا ، ولكنه لم يبق في هذه المرحلة سوى ما يتراوح بين 12 و 15 مقاتلا قادرين على القتال ، وفي هذه الاثناء ظهر الامير عبد القادر بنفسه الامر الذي زاد من قوة المهاجمين وحماسهم . وهكذا وقع آخر المقاتلين من قوة فرومن ـ كوسط في الاسر ، وجميعهم جرحى .

*

* *

المرحلة الثانية
من المعركة

لم يبق من الجيش الذي خرج بالامس بعدته وأثقاله من الغزوات سوى السرية التي تركت تحت قيادة جيرو لحراسة عتاد الجيش وأثقاله في معسكر سيدي موسى العنبر.

كان شابندلين قد أحاط جيرو علما بتفاصيل تطور المعركة في جبل كركور ، اثناء قيامه بمراقبتها عن كثب كما سبقت الاشارة الى ذلك . وكذلك ابلغه تفاصيل أخرى باربوت عندما حضر الى المعسكر لينقل أوامر مونتانياك ، وهو قد عاد للقتال ضمن القوة التي قادها فرومن ـ كوسط لنجدة قائد الجيش الذي لقي مصرعه بعد ذلك بقليل

وفي مرحلة تالية وصل الى المعسكر الفارس دوفين الذي كان قد لقي فرومن ـ كوسط في الطريق وقال له أن «كل

شيء قد أنتهى » . وهناك في المعسكر راح يكرر في شبه ذهول نفس العبارة على مسمع من جيرو وغيره من الضباط والجنود : « لقد ماتوا جميعا .. انتهى كل شيء ! » وبعد ذلك سار كالمجنون في طريق الغزوات . وكذلك هرب جنديان آخران من قوة فرومن ـ كوسط. وافلتا من قبضة العرب ووصلا الى ندرومة ، وجندي آخر وصل الى الغزوات ، وهو الذي ابلغ الضابط كوفين اخبار الكارثة . كان جيرو بعد انتهاء المعركة يشاهد فرسانا من العرب يقتربون من هنا ومن هناك من المعسكر فادرك أن العاقبة ستكون عليه وعلى قواته لامحالة . ان لم يسارع بالحركة طلبا للنجاة ، وخصوصا وأن الارض التي نصب فيها المعسكر لم تكن ملائمة من الناحية الطبوغرافية للدفاع لمدة طويلة . وكذلك جمع قواته بسرعة وحمل أثقال الجيش الرئيسية ، ستة بغال ، وارتحل عن المعسكر.

أتجه في البداية الى هضبة تقع في الشمال الشرقي كان يرى أنها توفر موقعا حربيا تسمح لجنوده ببيع حياتهم غالية . كان جيروا يركب جواده ، ومثله في ذلك مثل الطبيب روزاجيتي والترجمان ليفي ، وسار في مقدمة جيشه الصغير ، ولكنه قبل أن يصل الى الهضبة خرج جندي من الصف وأخبره بأنه يوجد على مسافة قصيرة ضريح ولي مبني بالصخر

ومحاط بسور ويمكن تنظيم الدفاع داخله . وعندئذ غير جيرو اتجاهه وقاد قوته الى ذلك المكان .

كان من حسن حظ جيروا ورجاله أن الفرسان العرب الذين سحقوا قوة النجدة التي كان يقودها الكومندان فرومن ـ كوسط اتجهوا بعد هذه العملية الى معسكر سيدي موسى وانهمكوا في جمع الغنائم التي خلفها الجيش الهارب ، فلم يتعقبون على الفور ولو فعلوا لكان من المؤكد أن يقضوا عليهم عن آخرهم وبدون كبير عناء . وكذلك استغل جيرو ورفقاؤه الذين يبلغ عددهم 82 مقاتلا (وهو كل ما تبقى من جيش مونتانياك الذي كان عدد رجاله 413 جندي وضابط) فرصة أنشغال العرب عنهم فسارعوا الى الالتجاء الى مقام سيدي ابراهيم . وقد وصلوا اليه في الوقت الملائم ، لانه لو بقيت أمامهم 50 مترا من الطريق للحق بهم العرب الذين ، كانوا يتعقبونهم بنشاط وهم لا يزالون منتشين بالنصر العظيم الذي حققوه في ذلك النهار.

* * *

ضريح سيدي ابراهيم الذي كان مزارا لسكان المنطقة عبارة عن مبنى من الحجر تعلوه قبة نصف كروية ويقع في سهل غير مزروع لا شجر فيه عدا النباتات الشوكية ، وحول المبنى بمسافة قصيرة يستدير سور من الصخر الصلد مربع الشكل

ويرتفع على مستوى الأرض بنحو متر ، والباب الذي يدخل منه الى الضريح باب ضيق . دخل جنود السارية الهاربة من مصيرها الى الضريح يتسلق السور ، وفي الداخل وجدوا عددا من المسلمين المنهمكين في أنواع العبادة وقد فوجئوا بهذا الجيش دون أن يدروا بأمره شيئا وكانه نزل من السماء وهناك أعمل الجنود الهابون السيف في بعضهم بينما تمكن البعض الآخر من الفرار والنجاة بحياتهم .

وبعد ذلك ادخل الجنود الهاربون في الحوش الذي يحيط ، ما حملوه معهم من الزاد كما أدخلوا الجياد الثلاثة التي لا تزال على قيد الحياة والتي القوها ليتخففوا من أثقالهم . فان فارس الهوسار وستة من رفقائه تلقوا أمرا بالنزول عن جيادهم والتخلي عنها وهذه الخيول لم تلبث أن أصبحت غنيمة في أيدي المجاهدين .

كان الضابط جيرو قد تلقى رصاصة استقرت في فخذه ، ولكنه مع ذلك يشرف بمساعدة شابيدلين على تنظيم الدفاع بسرعة ، فقد رتب عشرين رجلا عند كل واجهة للحوش وأمرهم بالجثو على ركابهم وبأن يكونوا على استعداد لاطلاق النار عندما يصدر اليهم الامر بذلك .

توقف المجاهدون الذين كانوا يطاردون القوة الهاربة عندما رأوا العدو يتحصن بقبر ولي مشهور عندهم مترددين

هل يعتدون على حرمة المقام ويصلونهم . أو يقتصروا على محاصرتهم والتربص بهم .

أغتنم العدو فرصة الهدوء الذي ساد عقب ذلك وراح يسد الثغرات في السور ويغلق باب الحوش ، وقد استقر الضابط والترجمان ليفي في الوسط .

شرعت القوة الهاربة في النظر في مسألة التموين ولم يلبثوا أن أكتشفوا أن ما بقي لديهم منها قليل لا يسمن ولا يغني من جوع ، فان أكياس الدقيق والمواشي وغير ذلك قد تركوا في المعسكر الذي جلوا عنه بسرعة تحت ضغط العرب القادمين وذلك لانهم لا يكونوا يتوقعون التعرض لحصار بل هم كانوا يواجهون الموت المحقق . وعندما جمعوا ما كان لديهم من التموين وقسموه ، كانت الحصيلة رغيفا واحدا وجفنة من البطاطس لكل ستة انفار قسم الرغيف والبطاطس بين الانفار الستة بالتساوي وكان على كل واحد منهم بعد ذلك أن لا يعتمد على أى مورد أخر ، ماعدا حبات التين الناضجة والمعلقة في شجرتين قائمتين في حوش الضريح . وأما الماء فلم يكن لديهم منه شيء ، اذا استثينا زجاجة من كحول الابسانت .

(وأياما كان الامر فهم الآن في مأمن مؤقتا على حياتهم .

كانت الساعة 11 صباحا ، ولم تصل جموع الفرسان المجاهدين الى الضريح الا عند الزوال ، وعند هذه النقطة أندفعوا إلى سور الضريح ، كما يقول أحد الجنود المحاصرين ، واسمه تريسي ، كالسيل العارم ، أو كأمواج بحر هائج ضد سور المقام» فكانوا يطلقون أعنة خيولهم على جميع وجهات الضريح الاربعة ، ولكن الجنود المحاصرين ينتظرون حتى اللحظة الحاسمة لاطلاق نيران بنادقهم . وكذلك دفعت النيران القوية المهاجمين الى الوراء وأضطروهم الى التراجع ، بعدما سقط العديد منهم في ساحة الاستشهاد . على أن الفرسان المهاجمين يتزايد بسرعة ، فكان السهل على مد البصر تغطيه برانس الفرسان والمشاة .

وكالامواج العاتية كانت لا تتراجع موجه حتى ترتفع أخرى وكل واحد منهم يطلب الاستشهاد أو القضاء نهائيا على هذه الشرذمة العاتية .

حضر الامير عبد القادر بنفسه الى جوار الضريح وبعث الى المهاربين المحاصرين بأحد فرسانه ليقنعهم بأنه لا فائدة من المقاومة ، ولما أقترب الرسول من السور سمحوا له بالنزول من على فرسه ، ولكنهم منعوه من الدخول حيث كانوا يخشون أن يلاحظ أنه ينقصهم التموين والماء .

أستمع القناصة باهتمام الى الشروط التي يعرضها عليهم الأمير بالإستسلام ولكن أحد منهم لم يفكر في قبولها . وبعناد جنوني رد النقيب جيرو على مقترحات الأمير الذي كان عزوفا عن اراقة الدماء بدون موجب قائلا انه وهو ورجاله تحت رعاية الله ، وأن لديهم من الذخيرة والتموين ما يسمح لهم بالقتال حتى النهاية .

وفي مرحلة تالية بعث اليهم الأمير برسالة ثانية ثم (ثالثة ، وقد بلغ به الحرص على الأبقاء على حياة هؤلاء الغزاة المتغطرسين انه أمر بتحرير الرسالة الاخيرة باللغة الفرنسية . وقد تولى تحريرها المساعد توماس الذي وقع في الاسر في معركة الصباح والرسالة لا تنطوي على أي تهديد أو استفزاز ، بل هي تحتوي على التذكير بعناصر الوضعية الميؤوس منها التي يجد المحاصرون انفسهم فيها والتي لا بد وان يكون المساعد توماس مقتنعا بها والا لما قبل كتابتها . كيف يرفض هؤلاء الجرذان الذين لم تبق اية صلة بينهم وبين عالمهم يد الرحمة والانسانية الممدودة اليهم بالحاح لانقاذهم من الموت المحقق بوسيلة أو بأخرى ؟ ذلك شيء نعجز عن فهمه اذا لم نستحضر في اذهاننا ما تحت الزي العسكري الفرنسي من الغطرسة والكبرياء والاحتقار لاعدائهم .

أضف إلى ذلك عنصر الخوف المتمكن في نفوس الفرنسيين ، من العرب فإن بعض هؤلاء كانوا يعتقدون بدون شك ، أن استسلامهم سيكون معناه قطع رؤوسهم من العرب المتوحشين وهذا الوسواس وسوء التصور ، بدون شك ، هو الذي أراد الأمير أن يزيله من نفوسهم حين كلف اسيرا كان زميلا لهم في صباح اليوم نفسه ليكتب اليهم بقلمه ولغته ، ليوحي اليهم أن العرب لا يقتلون الا في الحرب أو في حاله الضرورة القصوى كحالة الخيانة والردة والجزاء .

جاء في الرسالة التي حرزها المساعد ثوماس ما نصه :

« انكم بلا ذخيرة ولا تموين ولا يمكنكم أن تنتظروا نجدة من أية جهة كانت فأن مساعدة أقرب مركز عسكري فرنسي لن تصلكم قبل مرور ثمانية أيام . وفي غضون هذه الفترة ستكونون في قبضتي ، ويمكنني أن أستولى على معقلكم عنوة متى شئت ولو أن ذلك سيكون معناه التضحية بخمسمائة مقاتل من أجل القبض على خمسين أو ستين نفرا ، وهذا شيء لا أريده ولكنني سأقضي عليكم بالجوع والعطش .

قصد جيرو الذي يشكو من ألم كبير من جرحه الى داخل القبة ليستريح بعض الوقت وهناك سلم اليه لافاسيير الرسالة

الجديدة ، ولكن الضابط جيرو رفض الرد عليها وعند ذلك طلب اليه لا فاسيير أن يعيره قلمه وكتب في أسفل الرسالة : «الى عبد القادر ... أن قناصة أورليان يقتلون ولكنهم لا يستسلمون أبدا» . وبعد ذلك أطلع النقيب جيرو على الرسالة ، وأبتسم الأخير قائلا : «أنت على صواب أيها العريف «أبعث لهم هذا الرد» .

حاول الأمير للمرة الاخيرة وأرسل اليهم رسولا ، ولكن جيرو طرد الرسول في هذه المرة دون أن يسمع ما يريد أن يقوله ، بل ان بعض المحاصرين الهاربين قد أطلقوا أعيرة نارية في أتجاهه .

كان الامير يريد أن يتجنب مجزرة أصبحت لامناص منها بسبب تعنت هذه الشردمة من الجنود الذين هربوا من المعركة التي سقط فيها مئات من زملائهم ولكنهم الآن يدعون الاستماتة بغطرسة . وهكذا خطرت له فكرة جديدة كان يظن انها كفيلة باقناعهم بحكمة الاستسلام .

وجه اليهم أحد زملائهم الذين جرحوا ووقعوا في الاسر ، وهو النقيب دوترتر ، وكلفه بأن يوضح لهم الخطر المحدق بهم والوضعية الميؤوس منها التي يوجدون فيها .

سار النقيب بالرغم من جراحة برفقة ستة من العرب . ولما وصل اليهم وقف على مسافة 50 أو 60 مترا من السور . كان

الرجل شاحب اللون ولا يرتدي سوى سراويل وقميص ممزق . وعندما وجد نفسه وجها لوجه أمام زملائه أرتج عليه لشدة تأثره فبقي صامة لا يفوه بكلمة ، فلما نبهه مرافقوه الى أنه جاء ليتكلم الى زملائه ، ولكنه في هذه اللحظة غير موقفه فبدلا من أن يحث رفقاءه في السلاح على الاستسلام ، وجه اليهم الحديث قائلا :

« ان عبد القادر ارسلني اليكم لا طلب اليكم الاستسلام له ، ولكنني أدعوكم الى المقاومة والدفاع عن أنفسكم حتى النهاية »

وبعد فشل هذه المحاولة الاخيرة استأنف القتال فأخذ المحاصرون الهاربون يطلقون نيرانا متواصلة بينما اندفع المجاهدون نحو السور واستمرت المعركة حامية الوطيس مدة ساعة وربع ، وفي كل مرة كان الفرنسيون يصدونهم بنيرانهم القـويـة .

كان الامير عبد القادر يوجه الهجوم على مسافة 600 و 700 مترا ويحيط به كبار رجاله ، في غمرة المعمعة أصيب الأمير برصاصة في أذنه اليسرى ، وعندما شاهد رجاله هذا المظر ، قاموا بهجمة جديدة أعنف من كل ما سبقها .

كان عدد القتلى بين المجاهدين كبيرا بحكم كون الفرنسيين متحصنين وراء السور ويسددون طلقاتهم بدقة

كبيرة . وأما الفرنسيون فقد قتل رجل واحد أصيب برصاصة أخترقت فكيه .

وعلى الساعة الثالثة بعد الظهر قرر الأمير ترك ميدان المعركة على رأس معظم قواته وترك الباقي فيه لمواصلة الحصار.

وعلى الساعة الرابعة لمح جيرو على المرتفعات المجاورة سرية من الفرسان الفرنسيين فعاد الامل الى نفسه معتقد أن ساعة الخلاص قد حلت ، والواقع أن القوات التي كانت تحت قيادة الكلونيل برال كانت تعمل في هذه المنطقة ، وهذه السرية كانت من ضمن قواته بالفعل ، واذا فلم يبق الا الفات انتباهها . أمر جيرو برفع العلم الفرنسي على قبة سيدي ابراهيم ، ولكنهم أكتشفوا أنهم لا يملكون علما . سارعت جماعة لصنع علم ، فقدم الملازم شبادلين حزامه الاحمر والعريف لياسيير ياقته الزرقاء ، وركبت هذه القطع على منديل أبيض ، وها هو العلم الفرنسي يرفرف على معقل هؤلاء البؤساء ، مرفوعا على عود من القصب في يد أحد الجنود ، ولكن العلم الوطني الفرنسي استقبله العرب بوابل من الرصاص . وقد ثبت على كل حال أن العملية كلها لم تكن لها من فائدة سوى التسلي الذي رافقه أمل خائب ، لان سرية الفرسان المنوى الفات أنتباهها لم تنتبه اليه ، ولم تكن لتنتبه

الى منديل صغير معلق على قبة بين هضاب وجبال أضيف الى ذلك أنه حتى ولو رأته لاعتقدت أنه نوع من الاقمشة والخرق التي جرى العامة على تعليقها طلبا للبركة عند أضرحة الأولياء .

ذهب الأمير عبد القادر ، وأما الذين تركهم على حراسة الضريح فقد نال منهم الجهد والتعب حيث كانوا يقاتلون تحت أشعة الشمس المحرقة منذ الصباح ، وكذلك كانوا يشعرون بحاجة الى أخذ قسط من الراحة . وأما سكان القرى المجاورة منهم ، فقد عاد كل واحد منهم الى قريته ليستريح بين ذويه وأهله لدفن الموتى الذين استشهدوا في المعركة ، وفي ضمد جراح الذين أصيبوا فيها .

كان الهدوء الشامل يسود المنطقة الواقعة بجوار الضريح عند المساء ، ولم يكن يقطع السكون سوى طلقة نارية تسمع بين فينة وأخرى ، وكان العرب هم الذين يطلقونها في اتجاه السرية المحاصرة وهي تختلط بطلقات من نوع آخر في الجبال والقوى المجاورة تعبر عن سرور السكان وابتهاجهم بالنصر الذي حققه المسلمون في ذلك النهار أنه يوم عيد نادر المثال في تاريخ الجزائر .

مضى الليل بأكمله وطلع النهار ولم يقع أى هجوم جديد على ضريح سيدي ابراهيم أهو الهدوء الذي يسبق العاصفة ؟

هذا هو التفسير الوحيد الذي كان يتبادر الى أذهان الفرنسيين المحاصرين ولكن الشعور بقسوة الاحداث التي تنتظرهم لم يمنعهم من الاستمتاع بذلك الهدوء وبنسيم الليل العليل بعد يوم كان كل واحد يرى شبح الموت قاب قوسين أو أدنى ، منه . والمشكلة الوحيدة المطروحة بالحاح هي مشكلة العطش ، فقد ذلك النهار بشمسه المحرقة كله دون أن يجد واحد منهم قطرة ماء يبل بها ريقه .

وعند صباح ليلة 23 ـ 24 ، أخذ رجال السرية المحاصرة يسدون الثغرات في سور الحوش يوزعون قواتهم ويعيدون تنظيم دفاعهم من جديد استعدادا للهجوم المتوقع .

وفي يوم 24 سبتمبر أمر الامير عبد القادر الذي ضرب معسكره عند وادي طاولي وفي نفس المكان الذي كان مونتانياك قد ضرب فيه معسكره بالأمس ـ أمر بارسال الكومندان كوربي دوكونور وغيره من الاسرى الفرنسيين الذين أخذوا في معركة الامس ، مع قوة من الحرس في اتجاه المغرب الأقصى ، وذلك حتى يضمن لنفسه الحرية الضرورية في حركاته .

كان الأمير ينوي في المرحلة الأولى كما علم بذلك دوكونور فيما بعد أثناء مدة أسره الزحف على المركز العسكري في الغزوات ، ولكنه لما علم أن هذا المركز تحميه مدافع عدل

عن هذه الفكرة وفضل على ذلك المشروع الاستيلاء على مدينة ندرومة ثم السير بعد ذلك الى قبيلة طرارة .

كانت القوة الفرنسية المتحصنة في ضريح سيدي ابراهيم تشغل بال الأمير كثيرا . فبالاضافة الى كونها تجمد حركة عدد كبير من رجاله ، فقد تصلها النجدة ويتعرض رجاله لهجوم ساحق في غيبته قد يمحو بعض الاثار الرائعة التي أحدثتها معركة الأمس بين السكان ، ولذلك كتب الى جيرو من جديد رسالة يعده فيها بأن يحسن معاملته هو ورجاله أن هم استسلموا في الحال ، وينذره بأنه في حالة استمرارهم على عنادهم فسيسحق سريته بالقوة . ومرة أخرى كرر جيرو رفضه الاستسلام .

وعقب ذلك بدا المهاجمون يطلقون نيرانهم على الضريح . وعند الساعة العاشرة أكتسى اطلاق النار حدة وعنفا خاصا ، وكان الامير قد غير أتجاهه وعاد الى الضريح حيث أشرف بنفسه على ادارة المعركة ، ولكنه راعى أن يقع اطلاق النار من بعيد وأمر فرسانه بعدم الاقتراب من الصور تجنبا لتكرار ما حدث في اليوم السابق .

كان الأمير مقتنعا بعدم ضرورة شن هجوم على المحاصرين لانه كان يرى أن الجوع والعطش كافيان لحملهما على الاستسلام .

ومرة أخرى ضرب البوق الذي غنمه بالامس من الفرنسيين مؤذنا بالرحيل وكذلك شعر الفرنسيون ببعض الراحة حينما شاهدوا جيش خيالة الأمير وهو في مقدمته ينسحب من الميدان ويسير في اتجاه ندرومة ، تاركا عدد كافيا من الرجال لحراسة ضريح سيدي ابراهيم ، ولمناوسة القوة المتحصنة فيه ، فقد نظم ثلاثة مراكز تفصل بينها بعض المسافة ووضع في كل مركز 150 مقاتلا ، معظمهم ينتمون الى قبيلة ولد جنان والسحالية ومزريده وغيرها من القبائل التي تمتد أراضيها قريبا من الضريح .

خفت حدة إطلاق النار بين الجانبين عقب اطلاق النار ، فأن العرب كانوا قد استهلكوا كثيرا من الذخيرة في اليوم السابق كما لاحظوا أن رصاصهم ليس له مفعول يذكر حيث كان ينصب على أحجار السور ، كان لكل واحد من المحاصرين الحق في الحصول على أربعين خرطوشة ولكنهم أطلقوا كثيرا منها في بداية المعركة وخلال الهجمات التالية وكذلك كان رجال السرية المحاصرة يقتصدون في الذخيرة ، فكانوا لا يطلقون الرصاص الا عند الضرورة .

ولما رأى الاهالي ضعف ردود الفعل في القوة العسكرية المحاصرة تشجعوا وراحوا يقذفونهم بالحجارة ويقتربون شيئا فشيئا من السور ، وعندئذ أطلق الفرنسيون أعيرة فقتلوا

بعضهم . وكذلك قتل العريف روسينول أحد اعيان المنطقة في مساء ذلك النهار .

قضى المحاصرون والمحاصرون ليلة 24 ـ 25 سبتمبر في انتظار يسوده القلق والانتظار وقد كان العرب يقذفون المحاصرين بين الحين والحين بالحجارة ، وفي أكثر من مرة كان جيرو يسمع عربيا يسأل رجال السرية المحاصرة عما اذا كانوا يريدون ماء زلالا باردا أو خبزا ساخنا على سبيل السخرية ، وكان جيرو يجيب بالسلب .

ولكنه في صباح يوم 25 بلغ الجوع بالفرنسيين مبلغا لايطاق حيث أن المواد الغذائية القللة التي وزعت بينهم يوم 23 قد استهلك آخرها بالأمس ، وكذلك نفذت حبات التين التي حملتها الشجرتان الموجودتان في الحوش ، فتحولوا الى أكل الاعشاب وكذلك بلغ العطش بهم حد العذاب حيث مر عليهم يومان من القتال تحت الشمس المحرقة دون أن يتناولوا خلالهما جرعة من الماء ، فوصل الامر ببعضهم الى حد أن يشربوا بولهم بعدما يضيفون اليه قليلا من الابسنت ، من الزجاجة الوحيدة التي حملوها معهم . والبعض الاخر كانوا يشربون بول الخيول المربوطة .

كان النقيب جيرو، وهو كبير الجسم ويسبب له جرحه ألما مبرحا ، يلازم الجلوس دائما تقريبا . كان يبدو على وجهه

التعب والهم والغم ، حيث كان مقتنعا بأنه لا يمكن الخروج من حالتهم الا بمعجزة ، ومع ذلك ، فقد كان يصدر أوامره للدفاع بكل حزم وهدوء . وأما الملازم شابدلين فقد كان يتحرك باستمرار من واجهة الى أخرى في الحوش وهو منحني الرأس حتى يتجنب رصاص الاعداء وينقل أوامر قائد السرية الى الرجال ويشجعهم على الصبر واليقظة . كان البعض يسأله ما اذا لم يمكن من الافضل محاولة الخروج من جهنم التي يعيشون فيها وقد قال له أحدهم : «ترى هل سنموت في هذا المرجل الفضيع ؟ أليس الافضل أن نقتل والسلاح في أيدينا بدلا من أن نموت بالجوع والعطش ؟ دعونا نخرج من هنا ما دامت لا تزال فينا قوة للقتال ! » .

استمر قذف المحاصرين بالحجار في يوم 25 سبتمبر ماعدا فترة قصيرة انهمك فيها العرب بدفن شهداء الامس . ومرة أخرى راحوا يعرضون عليهم الماء والخبز ولكن جيرو رفض عرضهم خوفا من أن يكون الخبز والماء مسموما .

كان جيرو قد وجه رسالة الى الكلونيل برال منذ يوم 23 بواسطة أحد رجال القبائل عرض له فيها الوضعية التي توجد فيها قوته ويرجوه المسارعة بتخليصهم .

ولكن برال الذي سبق أن أبلغه الجنديان اللذان نجيا من المعركة أن جيش مونتانياك قد سحق عن آخره ، وهو

خبر أكده بعض الاهالي ، اعتقد أن الرسالة لم تكن سوى خدعة حربية من الامير الذي يريد أن يوقعه في كمين وهكذا ، وبدلا من أن يسير على رأس جيشه لانقاذ زملائه ، أو على الاقل ليتأكد بنفسه في الميدان من الاخبار التي وصلته من أفراده ، فضل السلامة والبقاء وراء اسوار حصنه .

ولكي يؤكد لضابطه وجنوده أن الاخبار التي تقول بوجود قوة فرنسية على قيد الحياة ، أخبار مزيفة ، عمد هذا القائد الشجاع الى ضرب الرجل الذي حمل الرسالة 25 ضربة بالسوط .. وبعد ذلك بعثه ليتأكد من الموقع الذي يوجد فيه جيرو ويعود اليه بالخبر على جناح السرعة ... وقد عاد الرجل فعلا الى ضريح سيدي ابراهيم حيث قبض العشر فرنكات التي وعده بها جيرو ، ولكنه لما كان قليل الرغبة في أن يتلقى مكافأة أخرى بالسوط في الغزوات ، فانه لم يعد الى برال ليقدم اليه تقريرا عن خرجته الاستطلاعية .

امتلأت نفوس هؤلاء القواد الشجعان بالذعر والخوف نتيجة لهول اصداء المعركة التي بلغتهم ، فلم يجرؤ أحد منهم على الخروج ، ولو على سبيل الفضول ليطلع على المسرح الذي سحق فيه جيش من جيوشهم بعدته وعدده ، وكما فعل برال فقد اكتفى الجنرال كافينياك قائد ناحية تلمسان

العسكرية ، هو أيضا بالاكتفاء باستئجار خدمات أحد الاهالي بأن يستفسر عن جلية الامر . وأما الرسالة التي بعث بها اليه جيرو في 23 فانه لم يعرف أحد بخبر ما اذا كانت قد وصلته أم أنها ضاعت في الطريق .

وهكذا انقطع كل أمل للسرية المحاصرة والتي أصبح هلاكها مسألة ساعات ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . تعددت الاسباب والموت واحد .

خفت مراقبة المحاصرين في أمسية يوم 25 ولم يقع أى هجوم عليهم ، ولكن العرب ظلوا في مراكزهم مقتنعين بأن الوقت يعمل لصالحهم وأن القنيصة على وشك السقوط من الجهد والعياء .

ومع ذلك فان ومضة من الامل الخادع لمعت في سماء المحاصرين لحظة ثم تبددت كالبرق الخاطف ففي هذا اليوم على الساعة الرابعة بعد الزوال تقدم أحد العرب الى الفرنسيين واشار لهم بيديه مفيدا بأنه يريد الكلام . تركوه يقترب من الضريح فسأله الترجمان ليفي ، ماذا يريد أن يقول .

اقترح الرجل على الفرنسيين أن يقودهم في أمان ليلا الى الغزوات أو الى مغنية قال لهم أنه شيخ بلدية قرية مجاورة ، ولكي يثبت لهم حسن نيته واخلاصه أعرب لهم عن

استعداده لوضع نفسه وابنه الوحيد رهينة عندهم . قال لهم : أنه في امكان الفرنسيين أن يشدوا أيديهما ويقتلاهما عند أول بادرة تدل على خيانته . وفي مقابل هذه الخدمة يطلب لنفسه مكافأة حسنة .

ولما كان النقيب جيرو لا يرى مخرجا آخر من المازق الذي هو فيه لم يتردد في قبول عرض الرجل ، بل ووعده بمبلغ ضخم من المال اذا نجح مشروعه .

وهكذا تواعدت الاطراف المعنية للقاء على الساعة الثامنة ليلا . ولكن الساعة الثامنة دقت ولم يظهر خبر للدليل المزيف ، وقد اعتقد الفرنسيون بعد ذلك أنه جاسوس جاء ليختبر نياتهم . وقد سمع الترجمان بعد ذلك بعض العرب المحاصرين يقولون لبعض حراسهم : «لا تخافوا شيئا ، فمتى نزعنا اسلحتهم نقلناهم الى الأمير» .

قرر جيرو الرحيل بالليل مهما كلفه ذلك . الاتفاق مع الدليل المزعوم ، أعطى فكرة عن نيات الفرنسيين المحاصرين مما جعلهم يلتزمون جانب اليقظة في الحراسة ، وقد اقترب الحراس من سور الضريح أكثر مما تعودوا أن يفعلوا .

قضى الفرنسيون ساعات طويلة في حمى القلق والتربص وهم يراقبون كل حركة يأتي بها حرسهم وقد زادهم هذا

السهر بعد ثلاثة أيام من الجهد والتعب والحرمان بؤسا وشقاء على شقاء ، ومع ذلك كله لم يجدوا فرصة معقولة لتنفيذ مخططهم في الافلات وكذلك طلع فجر يوم 26 دون أن يحاولوا الخروج من معقلهم .

وفي صباح يوم 26 شعر الفرنسيون باليأس التام من وصول أية مساعدة اليهم وقد ازدادهم المحاصرين بسبب الجوع والعطش والانهاك ، فلم يكن أمامهم من سبيل الخلاص سوى الهرب ، مهما كلفهم ذلك ، وهذا ما قرروه بالفعل .

عقد النقيب مجلسا حربيا مع زملائه واسفرت المداولة على أن يخرجوا من نومهم ذلك قال النقيب لجنوده في سياق تعليل هذا القرار : «الأولى أن نموت ونحن نقاتل من أن نهلك بالجوع والعطش في هذا المكان» . ولكن حظ الفرنسيين شاء أن يحرمهم القدر من شرف الموت وهم يقاتلون نعم سيموتون ولكن بدون هذا الشرف وهذه هي المأساة الحقيقية في الموضوع .

كان رجال القبائل الذين جاءوا في الليلة الماضية لتعزيز الحراسة حول الضريح قد انسحبوا في الصباح المبكر وعادوا الى قراهم تاركين الحرس العادي ليقوم بمهمته . وهؤلاء كانوا متعبين بما نالهم من الجهد والسهر ، ولذلك

فقد استرخت الحراسة نوعا ما . وهذه هي الفرصة التي كان لابد من اغتنامها .

اتخذ الفرنسيون جميع الاحتياطات للرحيل . فقد قطع الجنود رصاصاتهم الى قطع صغيرة بسبب قلة ما لديهم من الذخيرة ، وذلك حتى يتسنى لهم قتل أكبر عدد ممكن من العرب . عين عشرون ليسيروا في المقدمة وعشرون في المؤخرة والباقي على الجانبين .

على الساعة السادسة أعطى النقيب جيرو الأمر بالرحيل . وعلى الفور خرج الجنود من معقلهم وساروا في اتجاه خرائب منزل كبير حيث كان المحاصرون مجتمعين لتناول وجبة الصباح ، وهنا فاجاءهم العدو وقتلوا عددا . كان هذا أقرب مركز للحراسة الى الضريح . وبارتفاع صراخات هؤلاء الحراس استيقظت مراكز الحراسة الاخرى ولكنه بدلا من مطاردة العدو الذي يكاد يفلت من قبضتهم اتجه العديد منهم الى الضريح لجمع الاسلاب والغنائم ، مما سمح للهاربين بالسير وكأنهم في جولة لشم الهواء . والواقع أن الفرنسيين قد توقعوا ما حدث قبل أن يخرجوا من قلعتهم فقد شدوا وثاق الخيول مثلا ، بامعان وبطريقة معقدة حتى يستغرق اطلاقها وقتا طويلا وكذلك أنفق المحاصرون وقتا طويلا في الضريح أيضا بسبب النزاع حول تقسيم الغنائم .

وهكذا استغل الهاربون هذا الوقت الثمين فساروا في أمن ودعة دون أن يعترض طريقهم معترض ، في طريق الغزوات ، وهم يحملون العلم الذي وجدوه في الضريح ، علم رآيه سيدي ابراهيم وكأنهم ينقلون معهم تذكارا لزيارتهم البائسة للضريح ...

كانوا يرون نهاية مطافهم وخلاصهم قاب قوسين أو أدنى فغمرتهم فورة من البهجة والسرور . ياللحظ السعيد !

سوف يتمكن كل منهم من رواية قصة مغامرته العجيبة وكيف نجا من معركة سيدي ابراهيم لابنائه ولاحفاده من بعدهم ، بعدما تكون أفواه الجيران والاقارب قد رددتها الاف المرات .... وقد بلغ بهم التأكد من النجاة والخلاص الى حد أنهم راحوا ينشدون بصوت جماعي مرتفع «نشيد الرحيل» الذي جرت العادة أن يردده رجال الجيش في مرح وجلبة عندما يرفعون المعسكر ... هاهو ذا هدف المسيرة أمام أعينهم جمع الغزوات حيث ستكون مفاجأة رفقاء السلاح كبيرة بعدما يقتنعون أنهم ليسو أشباح المقتولين بل هم جنود حقيقيون من لحم ودم ! وهناك أيضا سيكون في انتظارهم الطعام الجيد والخمر المعتقة ، واجازة طويلة من الخدمة .

الاجازة ستكون طويلة حقا بالنسبة الى النقيب جيرو

الذي يقود عودة السرية وهو محمول على كتفي جنديين بسبب جرحه الخطير.

لم يكن العرب يتعقبون جيش الغزاة الصغير عن كثب ، ولكن المرور بالموقع الحصين الذي يحتله أولا حمو قد ينطوي على بعض الخطر الذي هو في غنى عن مواجهته في هذه الظروف . والاولى تغيير الاتجاه والعدول الى الطريق التي تمر بهضبة قليلة الارتفاع فهي أكثر أمنا وسلامة صادفهم كمين صغير من رجال القبائل الذين اختفوا وراء الاشجار وانتظروا حتى مروا أمامهم وأطلقوا على مؤخرة الفرنسيين أعيرة نارية لم تترك فيهم اثرا سوى أنها زادت من ارتفاع روحهم المعنوية : أهذا كل ما أعده العرب لمنع خروجهم ولاعاقة مسيرتهم المظفرة الى الغزوات ؟ انه لشيء قليل حقا !

على أن طلقات رجال القبائل لم تكن بدون مفعول تماما ، ولو لم يكن لها من أثر الا كونها قد أيقظت رجال القرى المجاورة لكان للذين أطلقوها فضل مذكور. فقد سار أولئك الرجال الى مكان الطلقات فرأوا لدهشتهم السرية التي كانت في قبضهم بالامس وهي تتخذ طريق العودة الى وكرها في الغزوات . وبعد طلقات نارية أخرى سقط ثلاثة من الجنود الفرنسيين . مضرجين في دمائهم وماتوا في الحين ،

ولكن هذه الخسارة ليست بالكبيرة ويمكن للسرية أن تتحملها بسهولة وبعد الثلاثة سقط اثنان آخران ، أحدهما فارس الهوسار ، ناتالي ، الذي أصيب بجرح بالغ حيث أخترقت رصاصة كتفه اليسرى واستقرت في عنقه . لا يتسع الوقت لعلاجه ، ولكن النقيب أمر أن يحمل في وسط مربع الدفاع الذي شكله الجيش الآن . ترك ناتالي بندقيته للملازم شابودلان الذي أخذ مكانه في الصف .

وعند هذه النقطة كان الجنود الفرنسيون قد اجتازوا الهضبة ، هضبة تينت ووصلوا الى آخرها ، ومن هنا كانت تبدو لهم الغزوات بصوامعها ومناراتها البربرية الطراز ، ولو أنهم لم يتمكنوا من مشاهدة الميناء انه لا يفصل بينهم وبين بر السلامة سوى حوالي 3 كيلومترات ، وبعبارة أدق 2700 مترا بالسير المباشر .

كان الجنود منهكين من الجهد والجوع والعطش ، وكان النقيب جيرو الكبير الجسم أصبح حمله أثقل من ذى قبل وخصوصا بسبب اشتداد الآم جراحه ولذلك أمر القائد بالتوقف لاستراحة قبل أن يجتازوا واديا صغيرا وادى المرسى .

كان فرسان أولاد زيري قد سبقوا السرية واحتلوا الوادي الذي يجري في مهده النهر الصغير ، وأولاد زيري هم سكان القرية المشرفة على الوادي والتي تقع في مقابل الهضبة من

الجانب الشرقي الشمالي . وعندما سمعوا اطلاق النار نزلوا لاعتراض طريق السرية البائسة . كان عدد رجال القبائل الذين ينتظرونها قد بلغ نحو الفين وقد كان من المحتم المرور على جثثهم . ليصلوا الى الغزوات . لما كان هذا أمرا صعبا ، فقد حاول جيرو كسب الوقت ، وهو يأمل أن يراه أحد من رجال جيش الغزوات. ويسارع رفقاؤه لنجدته فأمر بضرب البوق بنغمة طلب النجدة ولما لم يجد ذلك ، نفعا عقد النقيب مجلسا حربيا للنظر في الموقف الدقيق والقضية المطروحة على بساط البحث هي : هل من الافضل الاشتباك في معركة في نفس المكان أم يجب مواصلة السير الى الغزوات ومواجهة الاخطار المتربصة . عند هذه النقطة طلب النقيب كمية الذخيرة الباقية ، فقيل له أنها متى قسمت بالتساوى سوف تكون حصة كل فرد أربعة خراطيش .

أجاب النقيب قائلا : « فما دمنا لا نملك ما يكفي من الذخيرة فالافضل أن نسير الى الامام ، وليكن ما سيكون » .

قفز الجنود قفزة اليأس في الوادي والحراب مشرعة في أيدهم ، ولكن نبات العليق بأشواكه كان يعترض طريقهم ، وذلك في الوقت الذي وصل فيه رجال القبائل واحتلوا مواقع خلفهم وأخذوا يدحرجون الصخور عليهم لدفنهم أحياء . وكذلك سقط عدد منهم قتلى او جرحى وفي هذه الاثناء

راح عدد آخر يسددون اليهم نيران بنادقهم على مسافة قصيرة . انقطع مربع الدفاع وتم الهبوط الى الوادي بدون نظام ، وكل واحد يحاول تجنب العليق والصخور النازلة والطلقات النارية في وقت واحد .

وصل الجنود والضباط الفرنسيون الى أسفل الوادي وشكلوا مربعا للدفاع ولو أن عددهم قد نقص . وعلى الرغم من كل ما حدث ، فأن الضابطين والترجمان ليفي كانوا لا يزالون على قيد الحياة ، ولن الذخيرة نفذت ، ولم يعد في امكانهم الدفاع الا بالسلاح الابيض وذلك في الوقت الذي كانوا فيه يتلقون وابلا من الرصاص سقط كثير من الجنود ، ولكن القافلة البائسة أبت الا أن تواصل سيرها الى الامام وفي هذه الاثناء سقط الملازم شابادلان عقب أصابته برصاصتين فمات في الحال .

وصل الناجون البؤساء الى مجموعة من أشجار التين تقع عند أقدام قرية أولاد زيري غير بعيد من عين ماء ، وقريبا من مهد النهر الصغير ، وهناك شكلوا مربعا ثالثا للدفاع . وفي وسط المربع كان يقف النقيب جيرو والطبيب روز اجوتي والترجمان ليفي . كان رجال القبائل لا يزالون يطلقون نيرانهم على هذه القوة التي ترفض الاستسلام بعناء ، بينما يسدد الجنود حرابهم الى من كل يقرب منهم على أن

الكثيرين منهم قد ألقوا بنادقهم من قبل لأنها كانت تثقل كاهلهم ، وفي لحظة معينة اعتقدوا أنهم على وشك الخلاص ، فان الغزوات لا تقع إلا على مسافة بضع مئات الأمتار منهم . وزملاؤهم لابد وأنهم سمعوا بوق النجدة ودوي الرصاص .

كان موقعهم على مقربة من عين الماء يمثل اغراءا لا يقاوم لهؤلاء الرجال الذين حرموا من الماء طيلة ثلاثة أيام خرج عدد منهم من مربع الدفاع لارواء غلتهم فحدث خلل في الصفوف ولكن الباقين لم يلبثوا أن أعادوا تشكيله .

وفي هذه الاثناء خرج سكان قرية سيدي عمرو التي تقع على الضفة الشرقية للوادي ونزلوا الى المعمعة . على شيخ فرع من القبيلة واسمه الحاج قدور بن حسين تدخل لمنع وقوع مجزرة . هذا الشيخ هو مالك مجموعة اشجار التين التي التجأ اليها الفرنسيون للاحتماء بها . قال الشيخ لرجال القبائل :

«أنكم اذا اجهزتم على هؤلاء النصارى فسيكون في ذلك خراب دياركم وفقد املاككم بل ولربما فقد حياتكم أيضا ولكن النفوس كانت قد امتلات بالغيض والكره لهؤلاء الغزاة الذين جاءوا من بعيد ليلعبوا بحياتهم بهذه الصوزة وكذلك ما لم يكن من وقوعه .

كان الجنود يرفضون الاستسلام ويدافعون عن أنفسهم في جماعات صغيرة في البداية ثم أصبحت المعركة فردية بالنسبة الى الباقين على قيد الحياة . كان الهدف وهو الغزوات لا يبعد عنهم الا بمسافة 1500 مترا ومن هنا فان كل واحد يدافع عن نفسه بحربته لينجو بجلده الذين يرون هذه السرية الغريبة وكأنها عفاريت نزلت من السماء ليدخلوا في معركة أمام ديارهم ونسائهم كتب يقول :

«كان أمامنا وبجانبنا وخلفنا عيون ينبعث منها الشرر وأسنان مكشرة كأسناء الوحوش الضاربة ، وجوه تتقمص البغض والحقد ، اذرع ممتدة وأيادي متشخبة ، وأسلحة من كل الانواع يحاولون الوصول بها الينا فأنت لا تسمع اللعنات والشتائم أنه جمع مخيف حقا» .

سقط عدد من الجنود ولكن جيرو يرفض دائما أن يستسلم .وعلى الرغم من جراحه فهو يفضل المقاومة والموت على الاستسلام . وبعد مقتل جيرو سقط الرقيب ميرلي ثم تلاه الطبيب روزاجوتي . وأما الترجمان ليفي فقد تكلم بالعربية وأعلن استسلامه فأخذ أسيرا .

وعند هذه النقطة لم يبق من قوة جيرو التي كانت تتكون من 83 جندي وضابط ، سوى العريف لافا سير وعشرون جنديا وهم يقاتلون متفرقين بدون خطة أو نظام .

على أن الصدفة تدخلت في اللحظة الاخيرة لانقاذ من قدر لهم النجاة بأرواحهم في معركة سيدي ابراهيم فقد أطلقت ثلاث طلقات مدفعية من الغزوات على فترات منتظمة وكان لها مفعول بين رجال القبائل ولا سيما عندما نزلت احدى القنابل بين الجماعة الرئيسية المنهمكة في قتال الفرنسيين فلجؤا الى الهرب ، مصطحبين معهم 15 أسيرا كان بينهم الترجمان ليفي . وأما الافراد الذين كانوا لا يزالون يقاتلون فقد انفتح الآن أمامهم طريق الغزوات ، ولكن الأوائل الذين وصلوا الى المركز من بينهم لم يتعرف عليهم الحرس ورفضوا الاعتراف بهم بسبب الاصداء التي بلغتهم عن الحوادث الاخيرة والتي جعلتهم يفرطون في التحرز والحيطة ، وقد كانوا يتوهمون أن رجال الأمير عبد القادر قد تنكروا وارتدوا الازياء العسكرية التي أخذوها مؤخرا من الفرنسيين وجاؤا بقصد الاستيلاء على القلعة .

وهكذا فانه لم يعد إلى الغزوات من جيش مونتانياك الذي يتكون من 413 جندي وضابط . سوى 16 نفرا ليس من بينهم ضابط واحد أو ضابط صف . والذين عادوا كلهم لا يحملون سلاحا ، فيما عد العريف لا فايا سير الذي عاد ببندقيته وبعض الناجين من المعركة ماتوا بعد ذلك بقليل في المستشفى العسكري بتلمسان من جراء الاجهاد أو

متأثرين بجراحهم . وبعض الذين قدر لهم عمر طويل بعد ذلك اتسمت حياتهم بطابع لا يمحى وكانت تفاصيل ما شاهدوه من الهول خلال تلك الايام الثلاثة تتردد في أحلامهم أعواما طويلة . ومثال ذلك أن الجندي تريسي قد صرح لاحد مواطنيه في سبتمبر سنة 1892 أي بعد مضي 47 سنة على المعركة بقوله :

«كنت خلال 15 عاما بعد المعركة تتردد في أحلامي في كل ليلة بعض تفاصيل المعركة المرعبة وحتى اليوم وبعد 47 سنة لا تزال تفاصيل المعركة حية في ذهني كما لو شاهدتها بالامس .»

*

* *

رواية محمد بن الأمير
في تحفة الزائر (ص 452)

تعرض محمد بن الامير عبد القادر في كتابه «تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر» لذكر معركة سيدي ابراهيم وخصص لها أقل من صفحة تحت عنوان «ذكر وقعة الغزوات».

وبما أن هذا هو المصدر العربي الوحيد الذي يذكر هذه المعركة فقد بدا لنا أن من المفيد اقتباس هذه الرواية بنصها فيما يلي.

«وفي الحادى عشر من شوال سنة ثلاث وستين ومائتين والف 1263 والحادي والعشرين من سبتمبر (ايلول) سنة سبع وأربعين وثمانمائة والف 1847 ـ سار الامير من الدائرة، وكانت بوادي تافنا قاصدا الى الغزوات وهي مرسى صغير في الحدود وارسل في مقدمته بعض روساء جيشه فعلم بهم أحد

المرتدين وأخبر القائمقام الفرنساوي دى مونتيال فجمع جيوشه وقدم أمامه طليعة ثم خرج بعساكره وسار الى الامير فالتقى الحرس بطليعة العدو فأوقعوا بها ثم زحفت الجيوش الاسلامية والفرنسية واشتد القتال بينهما والتحمت الجيوش الاسلامية بجيوش العدو وخالطوهم فتركوهم حصيدا وأذاقوهم كأس الدمار والبوار ولم يفلت منهم سوى ثمانين جنديا التجوا الى مزار قريب منهم واغلقوا بابه عليهم فاتبعهم المسلمون وأحاطوا بهم وقتلوا منهم نحو السبعين والباقون سلموا انفسهم فقادوهم اسرى وفي هذه الوقعة أصيب الأمير برصاصة مسحت طرفا من أذنه اليمنى . ولما أحس بها نزل وصلى ركعتين شكرا لله تعالى على ما لحقه في سبيله وهذا أول جرح أصابه في الجهاد .

« قال ، رضي الله عنه ، أن الذين كانوا معي أيام الجهاد يظنون أني كنت حاملا حجبا للحظ من رصاص العدو ، لما يرونه من تأثيره في برنسي ، وعدم وصوله الى جسدي ، مع . أني لم أستعمل ذلك قط ، وانما كنت أحفظ نفسي بالتعاويذ الواردة في السنة فقط . »

وهذا الكلام عام ويكاد ينطبق على أية معركة انتصر فيها الأمير وهو خال من كل تحديد جغرافي ومن ذكر أسماء أخرى غير اسم الأمير واسم دومونتيال» (كذا) وحتى اسم الخليفة

البوحميدى الذي قاد المعركة لم يشر اليه المؤلف . والى جانب اسم الكلونيل «مونتانياك» ، يجب ان ننبه خصوصا الى غلطتين كبيرتين أولاهما ان المعركة وقعت في 21.سبتمبر 1945 (وليس 1847 كما ذكر المؤلف) ، وثانيهما ان دائرة الأمير لم يكن موقعها بوادي «تافنا» كما قال بل على ضفة نهر «ملوية» بالمغرب الاقصى .

*

* *

ردود فعل الهزيمة
في الجيش الفرنسي

كان النقيب جيرو ورفقاؤه حينما كانوا متحصنين في ضريح سيدي ابراهيم مقتنعين بأن رسائلهم وأخبارهم قد وصلت الى قيادة الجيش ، ولكنهم لا يفهمون لماذا لم يسارع الجيش الى نجدتهم والحال أن قوات مهمة موجودة في مركز مغنية والغزوات ، هذا بالاضافة الى الفرق العاملة والمتجولة في المنطقة . فكيف ولماذا وقع هذا الاهمال ؟.

كان الجنرال كافيناك قد أصدرا أمرا الى الكلونيل برال منذ يوم 21 سبتمبر على الساعة الحادية عشر ليلا (وهو الوقت الذي خرج فيه مونتياك من الغزوات بالضبط) بأن يساند حملة مونتانياك .

عقب وصول رسالة مونتياك الى برال عقد مجلس حربي برئاسة الأخير واشترك فيه الضابط ديكسيا . وبالحاح من هذا

الأخير اتخذ المجلس قرارا باعطاء الأمر بالزحف على الساعة 2 صباحا بحيث تصل القوة المنجدة الى سيدي ابراهيم على الساعة 6 أو 7 صباحا .

أنسحب ديكسيا عقب ذلك الى خيمته ليستريح قليلا قبل أن تبدأ المسيرة ولكنه لم تمر سوى ساعة واحدة على استلقائه حتى أيقظه برال وطلب اليه أن يصدر أمرا مضادا للمسيرة . عبثا حاول ديكسيا اقناع رئيسه بأن مونتانياك سيسحقه الأمير اذا لم يتلق النجدة فقد أصر على موقفه قائلا :

«لن التحق بالجنرال (كافينياك) ولن أسير لنجدة مونتانلاك . سأبقى هنا .

وعلى الساعة السادسة صباحا (يوم 22 سبتمبر) وصل دوى الرصاص الى مسامع برال ، فقال في نفسه مونتانياك هو الذي يشن هجوما ، وعندئذ قال للرائد ايكسيا : «أصدر أمرا بحمل السلاح لنسير لنجدة مونتانياك . فقال له ايكسيا أننا أبطانا كثيرا ، ومع ذلك لنسرع» .

سار برال في اتجاه سيدي ابراهيم ، وكانت المعركة مسموعة ولكن السير كان بطيئا بسبب وعورة الطريق وشدة القيظ . وطول الطريق كان رجال كتيبة برال يسمعون طلق النار المتواصل . ولما اقتربوا من مكان الموقعة على الساعة 11

توقف اطلاق النار كان ذلك هو الوقت الذي انتهت فيه المعركة الكبري وانهمك المقاتلون العرب في أخذ الغنائم في معسكر سيدي موسى العنبر وفيه ايضا كانت سرية جيرو قد دخلت الى ضريح سيدي ابراهيم .

على الرغم من توقف أطلاق النار استمر برال في مسيرته ، وقبل أن يقطع آخر واد يفصله عن موقع المعركة التقى بجنديين من قوة مونتنياك نجيا من المذبحة باعجوبة واستمع الى أقوالهما وكل واحد على انفراد ليتأكد من اتفاقهما . رووا له خبر القضاء على القناصة والهوسار بقيادة مونتانياك وكوربي دوكونور ووصفا له كيف دمر المسلمون القوة التي كانت تحت أوامر بورجا ثم صرحا بأنهما شاهدا قوات الأمير تنقض على سرية جيرو التي تتكون من 80 ضابطا وجنديا وقالو أن بعض زملائهم حاولوا أن يتجهوا الى ضريح سيدي ابراهيم ليغتصموا به ولكن العرب لحقوا بهم وقتلوهم مثل غيرهم .

وقد ثبت بعد التحقيق أن التصريح الأخير لا أساس له من الصحة وذلك على الرغم من روايتهما التي أخذت من كل منهما على انفراد وقد اختلط عليهما أمر بعض الجنود الذين تمكنوا أخيرا من اللحاق بقوة جيرو .

وهكذا اقتنع برال بما لا مجال للشك معه بأن قوة مونتانياك قد أفنيت عن آخرها وبأن الطلقات النارية المتقطعة

(التي كانت تأتي من سيدي ابراهيم ، التي كان يسمعها لا علاقة لها بالمعركة ، وأنها من الأعيرة النارية التي يطلقها العرب لابداء البهجة والسرور بمناسبة انتصارهم في المعركة) .

وهكذا قرر الضابط الكبير الرجوع الى مغنية قانعا من الغنيمة بالاياب ملتزما جانب السلامة والحذر ، دون أن يقارع سيف عربي واحد أو يبحث عن أخبار أخرى تساعده على استجلاء القضية ، غير ما تفوه به الجنديان الهاربان .

ولما حاول النقيب فيرون التقدم في اتجاه سيدي ابراهيم على رأس قوة من القناصة ليعرف حقيقة الموقف منعه الكلونيل برال قائلا : «لقد قتل ما فيه الكفاية» .

وصل برال الى مغنية وتناول طعام العشاء مع ندمائه المعتادين من الضباط على الساعة العاشرة ليلا . كانوا لا يزالون على المائدة يتناولون الطعام ويتبادلون الاراء حول حوادث النهار حينما سمع طرقا على الباب قيل لبرال أن رجلا من الاهالي يريد أن يتحدث اليه . كان هذا الرجل هو الذي يحمل رسالة من جيرو يطلب فيها النجدة كما سبق أن أوضحنا في مكانه .

قال ايكسيا : «سيدي الكلونيل أرجو أن تأذن لي بأن

أسير على رأس قوة من 400 مقاتل مختارين من كتيبتين لتخليص جيرو.

فاجابه برال قائلا : «اذا كان على أحد أن يسير لهذه الغاية فهو أنا ولكن من يدريك أن هذا الرجل ليس خائنا يريد أن يستدرجنا الى كمين أعده عبد القادر لنا باحكام ؟...

ـ ولكن الرسالة بخط جيرو.

ـ هل يوجد في كتيبتك من يعرف خط جيرو ؟

ـ نعم ، النقيب دوبورتال ، على ما اعتقد .

ـ أبعث في طلبه .

ثم تحول برال الى رسول جيرو وسأله .

ـ هل تستطيع أن تقودنا الى الضريح ؟

ـ نعم لهذا جئت .

كم ساعة سوف يستغرقها المشي ؟

ـ مع الجنود يقتضي الامر ثلاث ساعات .

تحول برال بعد ذلك الى ايكسيا وقال له .

ـ الا ترى كيف يكذب الرجل فان قطع المسافة يحتاج الى ست أو ثماني ساعات مع غذ السير.

وعلى اثر ذلك وصل النقيب دوبورتال ، ولما نظر في الرسالة لم يتعرف فيها على خط جيرو ولا على توقيعه ،

وعندئذ اقتنع برال بأن رسول جيرو لم يكن سوى عربي «خائن» . فأمر بالزج به في السجن . ومن الغريب أن ضباطا آخرين أبدوا شكهم في الرسالة عندما أطلعهم عليها برال ولما اختبروا توقيع جيرو وجدوا أن الأسم مكتوب بحروف واضحة وليس ما يذكر بتوقيعه من قريب أو بعيد بينما تعمد الرجل كتابة اسمه حتى يكون مقروءا . وبعد ذلك تساءل الجميع :

«كيف أمكن لجيرو الذي تحاصره قوات كبيرة أن يتصل بأحد رجال القبائل وينتظر الأخير حتى تجهز رسالته ؟ ثم ما مصلحة هذا الرجل الذي هو من الاعداء في تكبد مشاق الطريق وما يتعرض له من المخاطر لانقاذ اعداء وطنه ودينه ؟» .

القضية في غاية الوضوح فان عبد القادر حمل أحد الاسرى الفرنسيين على كتابة الرسالة ، أو هو استكتبها أحد أنصاره الذين يحسنون الفرنسية ثم وقعها بأحرف مكتوبة بوضوح لانه لا يعرف نموذج توقيع النقيب جيرو ... وأما اخلاص الرجل الذي حمل الرسالة وتحمله للمشاق فيفسره بكل بساطة كونه من رجال الأمير ومن أنصاره ...

ومما زاد في اقناع الضباط الفرنسيين أنهم لم يسمعوا أية طلقة نارية في يوم 24 ، كما كان الحال في اليوم السابق

وبعد أمعان النظر واعادة استجواب الجنديين الهاربين أيقن الجميع أن الرسول من جواسيس الأمير فأصدر برال أمرا بجلده عشرين جلدة وبعد ذلك أطلق سراحه فعاد الى ضريح سيدي ابراهيم حيث دفع اليه جيرو المكافأة المتفق عليها وهي عبارة عن 10 فرنكات .

وقصة امتناع كوفين الذي أوكل اليه مونتانياك قيادة قلعة الغزوات عن توجيه النجدة قصة مماثلة ولو أنها تختلف عن قصة برال في التفاصيل ، وهي على كل حال لا تقل عنها طرافة ، ولكن هذا المقام لا يتسع لها .

خرج الأمير عبد القادر من « الدائرة على ضفاف ملوية في يوم 17 سبتمبر بعدما أعلن الجهاد ، وقد استغرقت رحلته الى سيدي ابراهيم 6 أيام ، بعدما توقف في عدة أماكن لينتظر وصول أفواج المجاهدين من أبناء القبائل التي كتب اليها يدعوها للجهاد . ونحن لا نعرف عدد القوة التي أنطلق بها من المغرب الاقصى ولو أن وجود مجاهدين من المغاربة بينهما من ناحية وكون الخليفة البوحميدي كان يتولى قيادة أحد فيالقها من ناحية أخرى ، مؤشران يدلان على أن هذه القوة لا يستهان بها وهي بالطبع قد استمرت تتضخم في الطريق بالروافد التي كانت تأتيها من القبائل .

وقد ذكر جماعة الاعيان الذين إستقبلهم مونتانياك في

معسكره عند سيدي الحاج عبد الله يوم 22 سبتمبر أن الأمير يتجه الى الشرق وأنه سيقضي ليلة الغد على رأس قوة مهمة في سيدي بوجنان ، وهذه المعلومات أكدها عميل الفرنسيين القايد محمد طرارى ... الذي حدد عدد تلك القوة بما يترواح بين 1000 و 1200 مجاهد ، وقال أن الكتيبة التي كانت تراقب مسيرة الفرنسيين من الجبل هي كتيبة الخليفة البوحميدي ولكن يجب أن نذكر أن الطرارى أتهم أثناء التحقيق العسكرى حول هذه الكارثة بأنه قلل من عدد قوات الأمير عمدا حتى يغرى الكلونيل مونتانياك بسهولة محاربته ، والقاء القبض عليه كما كان ينوى بينما كانت تقديرات الجيش الفرنسي عقب المعركة تحددها بما يتراوح بين 4000 و 5000 مجاهد . وقد قيل في سياق الدفاع عن تقديرات الطرارى أنه من الممكن جدا أن يكون تحت قيادة الأمير سوى 1000 أو 1200 مقاتلا في يوم 22 ويتضخم بالتحاق الناس به من كل صوب بحث يصبح 4000 أو 5000 في اليوم التالي .

ولكن من هو القايد محمد الطرارى ، أهو حقا عميل الفرنسيين وصنيعتهم وموضع ثقتهم كما يدل على ذلك البرنوس والمرتب واللقب الذي أغدقوه عليه ، أم هو رجل لعب دورا مزدوجا ؟

استجوبت مخابرات الجيش الفرنسي ضابطا من سلاح خيالة الأمير ، عقب معركة سيدي ابراهيم ببضعة اشهر فصرح لهم بتفاصيل جمعها وسجلها ضابط الدرك دوجا وهي تلقي ضوءا على التهمة التي وجهت الى محمد الطراري . يقول ضابط الأمير أن رؤساء القبائل المجاورة للغزوات كانوا يترددون كثيرا على الكلونيل مونتانياك ويستقبلهم بحفاوة وأن الحديث بين الطرفين كان دائما يدور حول امكان القاء القبض على الأمير . فكان مونتانياك يقول لاحدهم لو ساعدتني على القبض على عبد القادر لحققت بذلك ثروتك» . وقد رد عليه أحدهم بقوله أنه يقسم بالله وبالقرآن ومحمد بأنه سوف يعمل لهذه الغاية .

وهذا الرئيس كان يتردد أيضا على الأمير ويكرر القول أمامه بأنه وجد نفسه أمام القوة فخضع للقوة ، ولو أنه مؤيد له ومناصر وكان الامير عبد القادر يحسن استقبال هذا الرجل ويعد له دورا في خططه .

ويمضي ضابط الأمير حسبما أورده دوجا فيقول :

وذات يوم حضر رئيس القبيلة الى الأمير الذي كان يعسكر في مكان يقع غير بعيد من الحدود فسأله عن الطريقة التي يعامله بها الفرنسيون ، فأجابه بأنهم يحسنون معاملته ، وعند ذلك سأله الأمير :

ـ وقائد مركز الغزوات ، أى رجل هو؟ صفه لي .

ـ «أنه رجل كريم ويستقبلني دائما بكثير من الطيبة ، ولا يسعني الا الثناء عليه ومع ذلك فأنا لا أعرف ما صنعته له أنت ... فهو شديد الرغبة في القبض عليك وأخذك أسيرا ابتسم الأمير ثم لزم الصمت بضع دقائق ثم قال للرجل :

ـ «إذا فهو يريد القبض علي . حسنا فأنت بنفسك سوف تساعدني للقبض عليه .

وعند هذا الاقتراح غير المتوقع رفع الرجل رأسه ، ولكنه لم يلبث أن أحناه أحتراما ولزم الصمت ثم أضاف الأمير :

ـ «ستفعل ذلك لان هذه هي ارادة الله !

«وعقب ذلك خرج الرجل من عند الأمير وهو أشد ما يكون تأثرا من هذه المقابلة . وبعد ذلك ببضعة أيام وقعت معركة سيدي ابراهيم التي سقط فيها مونتانياك . »

والقارىء لابد وأن يكون قد استنتج الآن ان رئيس القبيلة الذي تنصب عليه هذه التهمة هو القايد محمد الطرارى الذي رافق مونتانياك في طريقه الى المعركة ثم اختفى في الطبيعة في بداية الطريق .

على أن التحقيق أسفر على أن المسؤولين الاساسيين في هذه الكارثة هم ثلاثة ضباط : مونتانياك وبرال وكوفين .

وقد اعتبر الأول المسؤول الأكبر عما حل به وبجيشه فهو الذي خرج على رأس الجيش بدون اذن من رؤسائه . بل ومخالفا لاوامر أولئك الرؤساء وأكثر من ذلك فقد سعى للاشتباك في المعركة . في أسوء الظروف ، حيث قدم جيشه للامير عبد القادر قطعة بعد قطعة . وكان ينتظر حتى يقضي على القطعة الاولى ليقدم إليه القطعة الثانية .

وأما برال فقد القى التحقيق عليه مسؤولية لعدم تقدمه حتى ميدان القتال عندما اقترب من سيدي ابراهيم ، وكان ذلك هو اتجاهه الاصلي ، وكذلك وبخه القضاة على مسيرته على رأس جيش الى مغنية يوم 24 حيث أن هذه المسيرة كانت محاطة بأكبر الاخطار وكان يمكن للامير أن يتعرض لها عند مضيق تازة وتقع كارثة لا تقل عن كارثة سيدي ابراهيم ، وقد كانت هذا المغامرة مما يغتفر لو أنها كانت مستوحاة من هدف نبيل مثل إنجاد المحاصرين في ضريح سيدي ابراهيم .

على أن المسؤولية في المذبحة الاخيرة عند أشجار التين قد القيت كاملة على عاتق الرائد كوفين ، حيث أولئك البؤساء الذين نجوا من الحصار قد وصلوا الى مكان لا يبعد بأكثر من 1200 مترا من المركز العسكري في الغزوات ولم يخرج رجل واحد لنجدتهم . وقد أجمع رجال القيادة

العسكرية على أن الكومندان كوفين قد أثبت عدم قدرته على القيادة .

العقاب والانتقام .

كان الالاف من الجزائريين قد سمعوا بأخبار هذا النصر الباهر في ميدان القتال ، وهو من أعظم ما سجلته الجزائر المكافحة تحت لواء الأمير عبد القادر . وقد كان من حق الجميع أن يفخر بذلك لانه انتصار شعب أعتبر خاضعا ومستسلما ولا طاقة له على التحرك وهو أيضا انتصار قائد طرد من وطنه بعدما سلبت أمواله وكتبه في الزمالة ولم يعد يملك سوى شجاعته وثقة الشعب . ولكنه بعدما مرت فرحة الانتصار وانطفأت أضواء المهرجانات الشعبية وعاد كل واحد من أبطال ذلك النهار الخالد ، راح الناس يفكرون بقلق في صواعق غضب العدو وفي مدافعه التي لا تبقى ولا تذر في كل مكان سددت اليه .

والواقع أن كل جندي وضابط ، بما في ذلك أولئك الذين شلهم الخوف والجبن فلم يجرؤا على الخروج من وراء حصونهم لنجدة زملائهم كانوا يتحفزون الآن بعدما عرفوا أن الأمير عاد ادراجه عبر الحدود الى الانتقام من الرجال والنساء والاطفال .

كتب الكولونيل سانت أرنو في رسالة له الى الجنرال باريقول :

«أن ضباط وجنود كتيبتي يشعرون بنار تتأجج في صدورهم للانتقام» على أن القيادات العليا كلها كانت تمارس بالنيابه (بما في ذلك منصب الوالي العام) ، فأن أوامر متطابقة قد صدرت للانتقام . على أن بعض المعنيين لم ينتظروا صدورها لتنفيذها بل عمدوا الى تنفيذ الأوامر التي يتوقعونها قبل أن تصل اليهم .

ولكن الشعب الجزائري تعود بعد مقاومة ست سنوات كيف يواجه عواصف الغضب والانتقام ، وقد أصبح لذلك يتمتع بشيء من المناعة ويتذرع بالصبر الذي يسمح له بأن يحقق بين الحين والحين المعجزات .

وكذلك أتيح للامير عبد القادر الذي يطاردونه ويعملون للقبض عليه أن يحقق بعد معركة سيدي ابراهيم بيومين انتصارا جديدا هز الدوائر العسكرية الفرنسية هزة عنيفة في الوقت الذي زاد من ثقة الشعب في نفسه .

ففي يوم 27 سبتمبر سير الجنرال كافينياك قوة عسكرية تتكون من 200 جندي وضابط من تلمسان الى عين تموشنت لترافق قافلة تحمل الذخيرة التي منها 20000 خرطوش

بقيادة الضابط مارين ، وفي يوم 28 من الشهر أحاطت خيالة الأمير بهذه القوة وحملتها على الاستسلام له بدون قتال ، وهكذا أقتيد هذا الجيش بعدته وذخيرته الى الدائرة في المغرب حيث سبق أن أرسل أسرى مغركة سيدي ابراهيم .

وأصداء هذه الانتصارات تجاوز المحيط العسكري والسياسي الضيق لتثير الخوف والرعب في نفوس المعمرين الأمر الذي سارع معه المريشال صولت وزير الحربية باعاذة الجنرال بيجو الى الجزائر : وكان أول عمل قام به عقب وصوله (15 أكتوبر) هو اصدار بيان لتهدئة نفوسهم وتطمينهم على مستقبلهم .

اتفق كافينياك ولامور سيير على تشكيل قوة مشتركة لقمع السكان (12 أكتوبر) فتكونت هذه القوة من 4500 من المشاة و 600 من الفرسان و 10 قطع من المدفعية الجبلية وفي 13 قامت هذه القوة بحملة على قبيلة طرارة وجيله وغيرها من القبائل المجاورة ، واستولوا على مضيق العين الكبيرة .

وأما الأمير فقد سارعلى رأس جيشه في اتجاه الجنوب ، وفي نفس الوقت اتجه كافينياك على رأس قوة كبيرة لمعاقبة القبائل الواقعة على الحدود والتي شارك بعض أبنائها في تحقيق النصر في سيدي ابراهيم . وبعد ذلك وقع عقاب

قبيلة مسيردة وغيرها ، وهي عملية اشترك فيها 3800 من المشاة و 800 من الفرسان . وفي 15 يونيو سار كافينياك الى قبيلتي قيس وعطية (للإنتقام لسيدي ابراهيم) فذمر جميع قراهم وخرب زرعهم وامعن في القتل والسلب والنهب وفي يوم 16 من الشهر اشعل كافينياك النيران في جميع القرى الآمنة الواقعة على واجهة البحر . وأما السكان فقد جمعهم في يوم 17 على ضفة البحر وأمر جنوده بالهجوم عليهم بالحراب فوقعت مذبحة نادرة المثال في الوحشية حيث أن من نجا من الرصاص والحراب ابتلعه البحر وقد أحصي عدد من قتل في البر في ظرف ساعتين فقط. فبلغ 200 قتيلا ، وأما عدد الغرقى في البحر فلا يعلمه الا الله . وقد أبلغ كافينياك في يوم 18 بأن نصف قبيلة مسيرده قد قتلوا . وأما مدينة ندرومة التي أتهمت بفتح أبوابها للهاربين البؤساء من نيران العدو ، فقد فرضت عليها غرامة قدرها 10000 فرنك . وأما القايد محمد الطرارى الذي أتهم بتضليل مونتانياك ، فقد أضطر الى الاستسلام فنفى الى فرنسا حيث مات في قيود الاسر والغربة دون أن تتلقى اسرته شيئا من أخباره .

*

*　　*

مصير أسرى معركة
سيدي ابراهيم

أخذ الكومندان كوربي دوكونور أسيرا الى معسكر الأمير وكان مغشيا عليه من أثر جراحه ، فلما استفاق بعدما غسلوا جراحه وضمدوها ، طلب مقابلة الأمير فلما اذن له بذلك قدم اليه ، طلب الى الأمير أن يقدم كسوة ملائمة للاسرى وأن يحسن معاملتهم كما تفعل الدول الاروبية . وعلى الفور أصدر الأمير امره بتسليم جميع الملابس التي أخذت من الفرنسيين أمواتا وأحياء ثم اعادة توزيعها على الاسرى . وبعدما أخبر الأمير دوكونور بهذه الاجراءات قال له : «لقد حاربت بشجاعة ولن يمسك أذى سوف نعتني بك» .

وفي الغد 24 سبتمبر جمع الاسرى واصطفوا في صف وخرج الأمير اليهم على فرسه فعدوهم فكان عددهم 80 أسيرا ثم أمر الأمير باعداد وسائل نقلهم وبعدما أوصى الأمير

المرافقين للاسرى بالحفاظ على حياتهم ابتعد في اتجاه ندرومة .

وفي يوم 26 عبرت قافلة الاسرى نهر ملوية وعلى الساعة الواحدة بعد الزوال وصلوا الى الدائرة التي كانت تحت قيادة الخليفة ميلودين عراش كانت الدائرة في هذه المرحلة تمتد على مساحة ما يقرب من 4 كيلومترات ، وكان يقطنها نحو 4000 نسمة من المدنيين وكانت خيمة الأمير تقع في الوسط .

وعقب وصول الاسرى قدمت لهم القهوة ثم أخذوا الى المعسكر الذي أعد لهم والذي يقع على مسافة 8 أو 10 كيلومترات من الدائرة على الضفة اليسرى لنهر ملوية ، وهذا المعسكر يأوى كتيبة تضم نحو 500 مقاتلا من الجيش النظامي بقيادة الحاج سالم الذي هو رجل أسود اللون ، وكان الحاج سالم هو الذي خصص لهم مكان اقامتهم وزودهم بالخيام وبعد ذلك قدمت اليهم وجبة العشاء وهي تتكون من خبز وكسكس .

وبعدما استقر المقام لاسرى سيدي ابراهيم في الدائرة ، وصل الاسرى الآخرون الذين أخذوا بدون قتال عند عين تيموشنت ، وعلى رأسهم ثلاثة ضباط و 10 ضباط صف وكان على رأسهم الضابط ماريس وفي طريقهم انضم اليهم

الاسرى الخمسة عشر الذين أخذوا مع الترجمان ليفي عند مجموعة أشجار التين في المعركة الاخيرة التي قتل فيها جيرو.

وبذلك بلغ مجموع اسرى سيدي ابراهيم في مختلف مراحل المعركة ، وأسرى عين تموشنت 300 أسيرا ومثل هذا العدد من الاسرى لم يقع قط في يد الأمير حتى في أيام قوة سلطانه .

سمح ممثلو الأمير للضباط الاسرى بالمراسلة وكذلك كتب كوربي دوكونور الى الوالي العام للجزائر وفي 5 أكتوبر كتب الرائد الى الجنرال كافينياك وفي 8 الى كافينياك ولاموريسيير وفي 17 أكتوبر تلقى رسائل من الجنرالين مرفقة بمبلغ 1000 فرنك وملابس وأدوية موجهة الى الدكتور كاباس أحد الضباط الاسرى .

ولما انتشرت اشاعات بأن الفرنسيين ينوون الهجوم على الدائرة لتخليص الاسرى ، نقلت الدائرة يوم 4 نوفمبر الى مكان على الضفة اليسرى لملوية يقع على نحو 10 كيلومترات من موقعها ووضعت في هضبة محاطة بالجبال ذات مدخل صعب ، كانت الدائرة تعاني من نقص في المواد الغذائية ولذلك نقصت الحصة اليومية التي تقدم للاسرى وأما المال الذي تلقاه كوربي دوكونور فقد أنفقه في شراء الاقمشة لصنع

ملابس للاسرى ووزع الباقي على الجنود والضباط وكل حسب رتبته وكذلك سمحت الادوية التي تلقاها الدكتور كاباس بضمد جراح الاسرى وعلاجهم على أفضل وجه ممكن .

وصل الخليفة بوحميدي الى الدائرة في رفقة 30 فارسا يوم 19 نوفمبر وهناك استدعى بعض الضباط الاسرى فأخبرهم أن مصير الاسرى سوف يتقرر عما قريب ثم أعطاهم مبلغ 130 فرنكا . ليستعينوا بها في محنتهم .

وفي يوم 25 وصل الى الدائرة سيدي سعيد ، شقيق الأمير عبد القادر الذي يقطن في وجده عند بني سناس ، ولما اجتمع بالضباط الاسرى أبلغهم أنه سوف يطلق سراحهم بمجرد ما يوافق الجنرالات الفرنسيون على مبادلتهم .

وفي يوم 28 قام بوحميدي الذي تولى قيادة الدائرة في مكان ابن عراش باستعراض الاسرى الفرنسيين وفي معيته رئيس قبيلة الأخلاف المغربية الصديقة .

مرت سنة 1846 دون أن يحدث شيء يستحق الذكر فيما يتعلق بمصير الاسرى فيما عدا وصول رسائل من كافينياك الى كوربي دوكونور ومعها بعض الأوسمة التي منحتها القيادة والحكومة للاسرى الذي أبدوا شجاعة غير عادية في المعركة .

وفي أوائل يناير 1846 ، توصل احد الاهالي الى دس رسالة في السوق في جيب أحد الاسرى حملها من حاكم مليلة . الى كوربي دوكونور قرأ الأخير الرسالة وفيها أن الحاكم يضع نفسه تحت تصرف الكومندان وأنه يستطيع أن يثق بحامل الرسالة وبعدما أحاط زملاءه الضباط علما بمحتوى الرسالة قرر أن يجيب عنها الا شفاهيا خوفا من أن تكون فخا ، لان الرسالة كتبت قبل ذلك بستة أشهر وحاملها شوهد في الصباح في السوق يتجاذب أطراف الحديث مع بعض العرب ومع ذلك فقد كان الرجل أهلا للثقة ، كما اكتشف الضباط الاسرى ذلك فيما بعد .

وفي أول فبراير جمع بوحميدي الضباط في معسكره وأبلغهم أن الحكومة المغربية ترفض ارغام الأمير عبد القادر على تسليمهم اليها كما تطلب بذلك فرنسا وبعد ذلك عقد الخليفة اجتماعا على انفراد مع الرائد كوربي دوكونور أبلغه أثناءه بواسطة مترجم أن الجنرالات الفرنسيين وضعوا مخططا لخطف الاسرى بالقوة وأضاف قائلا أنهم لن يتمكنوا من ذلك ثم صرح له بأن يكتب من جديد الى كافينياك . بشرط أن يحدثه عن تبادل الاسرى وفي غضون شهرى فبراير ومارس غير موقع معسكر الاسرى عدة مرات حسب الاخبار والاشاعات الرائجة حول عزم الفرنسيين خطفهم بالقوة وفي

هذه الاثناء وقعت عدة محاولات للهروب فشلت كلها ماعدا واحدة وصل صاحبها الى مغنية ، ولكن حالة النقص في المواد الغذائية ازدادت سوءا على سوء .

وفي 6 أبريل وصل الى الدائرة خليفتان كانا يشاركان في القتال مع الأمير في الحملة التي قام بها في الجزائر ، وهما الحاج مصطفى عديل الأمير وخليفة معسكر سابقا ومحمد البركاني أحد أبطال المقاومة وخليفة لمدية سابقا .

خلف الحاج مصطفى بن ثامي البوحميدى في منصب خليفة الدائرة . قيل أن الحاج مصطفى على عكس سلفه البوحميدى لم يكن يبدى للاسرى أى اعتبار . وعندما قام بزيارة معسكر برفقة البوحميدى والبركاني في 10 أبريل لم يوجه الى أحد منهم الحديث .

وفي 24 أبريل حضر الحاج الحبيب المسؤول عن شؤون التموين الى معسكر الاسرى وقال لهم أنه يحمل أمرا من الحاج مصطفى بن ثامي يقضي بضرورة حضور ضباط الاسرى الى معسكره بدون تأخير. قصد كوربي دوكونور الى خيمة قائد معسكر الاسرى الحاج سالم وسأله عن الاسباب التي وراء هذا الطلب المستعجل وهناك وجد الحاج حبيب الذي تولى الرد عن السؤال قائلا : « ان الخليفة يريد مقابلتكم لكي يقدم اليكم ضيافة بالكسكس كما صنع البوحميدى منذ

وقت قريب » وقد طلب اليهم الكومندان الاذ ن بالبقاء على رأس الأسرى أو على الاقل أن يترك في مكانه الضابط مارس ولكن الرجلان الحا على ضرورة انتقال جميع الضباط .

جمع كوربي دوكونور الجنود وأعلن اليهم خبر سفره ووعدهم بأنه لن تساء معاملتهم في غيبة الضباط . ولما استعجله الحاج الحبيب استعد للسفر وطلب أن يرافق الضباط أربعة من الجنود فأجيب الى ذلك .

قضوا الليل في خيمة نصبوها في العراء وفي يوم 25 وصلوا الى مكان الدائرة التي قيل لهم أنها انتقلت واستقبلهم سي سليمان رئيس الحشم احسن استقبال .

وفي يوم 26 نقلوا الى معسكر زيون وعندما عرفوا أن الخليفة الحاج مصطفى غير موجود هناك اعترتهم الدهشة ولكنهم أخبرو بأن الأمير استدعاه اليه في الصحراء وعند ذلك جرد الضابط هيلارى والطبيب كاباس من أسلحتهم التي كانوا يحتفظون بها حتى ذلك الحين . وفي الليل اتخذت اجراءات مشددة للمحافظة عليهم .

وفي اليوم التالي كان بعض المغاربة يشيرون الى رقابهم بايديهم مما أستنتج معه الضباط أنهم سوف يقتلون بعيدا

عن بقية الاسرى . أخذ جواد كل من مارين وكاباس وفي 6 مايو رحل الضباط مشيا على الأقدام من معسكر زيون الى حاسي بركان ، ومن هناك نقلوا يوم 18 مايوا الى معسكر يقع في أعالي ملوية.وهناك عرض أحد الحرس على باربوت أن يوصله الى الفرنسيين ، ولما رفض أن يذهب وحده قال له الرجل : «سوف يقطعون رأسك كما فعلوا بالجنود . الذين قتلوهم والقوا بجثثهم في نهر ملوية وحملتها المياه الى البحر . »

وفي يوم 28 مايو (1846) نقل الاسرى الاحد عشر الى جبل قبيلة الأحلاف ، ثم نقلوا منه الى معسكر آخر وهنا جاء اليهم الحاج الحبيب وفي يده رسالة من الأمير عبد القادر.صرح لهم بأن سلطان المغرب هدد بالاستيلاء على الاسرى بالقوة فصدر الامر باعدامهم قال لهم انه مكلف بأن يقول لكوربي دوكونور أن يكتب الى المريشال بيجو الوضعية التي يوجدون فيها.حيث الأمير لا يريد أن يكتب اليه بعد الآن لأنه كتب خمس رسائل بشأن تبادل الأسرى فلم يرد عليه ، وأضاف الحاج حبيب قائلا بأنه أنذر الجنرال بيجو في رسالته الاخيرة بأنه في حالة عدم تلقيه ردا منه سوف يقتل الاسرى . نفذ حكم الاعدام في الاسرى الذين أبت حكومتهم أن تبادلهم او تفديهم في ليلة 24 ـ 25 مايو وهو التاريخ الذي نقل فيه الضباط.وكانت الاشاعات رائجة في

الدائرة في ذلك بأن الاسرى الجزائريين الذين نقلوا الى فرنسا قد قتلهم الفرنسيون.وهكذا فلم ينجح من تلك المذبحة من مجموع 300 أسيرا الذين أخذوا من سيدي ابراهيم وعين تيموشنت سوى 11 أسيرا .

كتب كوربي دوكونور في 2 يونيو رسالتين بنص واحد الى كل من المريشال والجنرال كافينياك ليعلن اليهما هذا الحدث وبعدما أعلن اسماء الاسرى الاحد عشر الذين لا يزالون على قيد الحياة أبلغهما أن سلطات الامير مصرة على أن لا تطلق سراحهم الا بمبادلتهم . أرسلت الرسالتان فعلا في يوم 6 يونيو.

تلقى كوربي دوكونور رد الجنرال كافينياك المؤرخ في 14 يونيو يوم 27 من الشهر ولكن الضابط لم يتلق ردا على الرسالة التي بعث بها الى بيجو الذي كان خلفاء الأمير ينتظرونه بفارغ الصبر بنسبب أزمة التموين التي كانت تعاني منها الدائرة وأما رسالة كافينياك فانها لم تكن تحتوى على أى شيء واضح واكتفى بأن نصح كوربي دوكونور الذي رقي الى رتبة كلونيل في 15 مارس بأن يكتب مباشرة الى بيجو ويبعث اليه قائمة باسماء الاسرى الاحياء وباسماء الاسرى الجزائريين الذين تريد سلطات الأمير مبادلتهم بهم .

وفي 28 يونيو كتب الكونيل كوربي دوكونور رسالة أخرى الى المريشال بيجو يوضح له فيها الاخطار التي تنطوى عليها وضعيتهم .

وفي 18 يوليو وصل الأمير عبد القادر الى المعسكر على رأس جيش يتكون من 300 أو 400 فارسا بعد حملة عسكرية دامت مدة طويلة في جنوب وشرق الجزائر وبعد ساعة رحل عنه الى الدائرة ثم عاد الى المعسكر بعد ذلك بيومين .

ولما لم يتلق الكلونيل أى رد من بيجو كتب من جديد رسالة الى الجنرال كافينياك في 22 يوليو جاء فيها :

«ان الانسانية تقضي بأن لا تتركونا مدة أطول في الحالة الفضيعة التي نحن فيها اذا لم تكونوا قد قررتم التضحية بنا جميعا وهذا ما سيحدث اذا بقيت رسائلنا بدون جواب . »

كلف الفارس الذي حمل هذه الرسالة يوم 23 الى مغنية بأن ينتظر بعد تسليمها حتى يتلقى رد السلطات الفرنسية .

وفي 25 يوليو حضر الأمير الى معسكر الاسرى وقابلهم بواسطة بوحميدى وسألهم لماذا لم يعد الفرسان الذين حملوا رسائلكم الى مغنية فهل وقع القبض عليهم ؟ وقال لهم أنه كتب خمس أوست رسائل للمريشال بيجو والجنرال دولامورسيير يطلب تبادل الاسرى ولكنه لم يتلق ردا .

نقل معسكر الاسرى في 31 يوليو الى عين زهر وهي ينبوع يقع قريبا من جبال الريف وهناك تلقى كوربي دوكتور رسالة من الجنرال كافينياك مؤرخة في 29 يوليو وقد تسلمها في 10 أغسطس جاء في هذه الرسالة أن قنصل فرنسا في طنجة قد كلف من قبل المريشال بيجوبالاهتمام بموضوع تبادل الاسرى .

وقد أجاب الكلونيل كافينياك برسالة قال فيها خصوصا بأنهم قد اتصلوا بسلطات الامير عقب وصول الرسالة ولكنهم أبلغوا أن تبادل الاسرى لن يتم في طنجة ولا بواسطة القنصل الفرنسي وقال أن عبد القادر قد أقسم أنه لن يجرى التبادل بهذه الطريقة حتى ولو رد الفرنسيون اليه جميع الاسرى الجزائريين ، وأضاف الكلونيل كوربي دوكونور أنه كلف بكتابة رسالة لآخر مرة اليه (كافينياك) وأنه لا يوجد سوى حلين اثنين فاما أن يتم تبادلهم أو يضحي بهم «تمام» لينته هذا الاحتضار في أسرع وقت ممكن لانه أشد قسوة من الموت نفسه .

كان صمت بيجو العنيد والذي كان به متواطئا في قتل الاسرى يعود الى قراره بأن لا يدخل في أية ترتيبات مع الأمير من شأنها أن ترفع من قيمته من جديد في نظر الجزائريين وبعبارة أخرى فقد قرر التضحية بجنوده وضباطه

الذين نجوا من معركة سيدي ابراهيم لاسباب تتصل بسياسته العليا وهذه الخطة وافق عليها كافينياك موافقة تامة بل أنه كان ملكيا أكثر من الملك وذلك في الوقت الذي يسلى فيه الضباط الاسرى ويلهيهم عن مصيرهم فعندما تلقى رسالتين من الكلونيل احداهما موجهة اليه والأخرى الى بيجو ، قرأ الرسالة الموجهة اليه أمام الحاضرين بصوت مرتفع ثم أحرق أمامهم أيضا الرسالة ولما طال انتظار الاسرى دون أن يأتي أى رد من حكومتهم خطر ببال الكلونيل مشروع وهو أن يدفع فدية نفسه وفدية رفقائه الى الأمير عبد القادر طلب الى ضابط من القوات النظامية أن يقدم الى الأمير اقتراحه وقد كان جواب الامير جاسما بالرفض .

«أنني لا أريد مالا ولكنني أريد الاسرى الذين أخذوا مني» .

«وأنا لا أفهم لماذا لا تريد الحكومة الفرنسية مبادلة أسراها» .

بعث الكلونيل الى الأمير بجواب عن رده قائلا أن مبادلة الأسرى أمر لا يتوقف عن حسن نيته ولكنه هو ورفقاؤه معرضون جميعا للموت دون أن يستفيد الأمير من ذلك شيئا . فاجاب الأمير بقوله : «سنرى» .

وسواء عرف بعض الخلفاء بهذا المسعى أم لم يعرفوا فان الخوجة محمد جاء بعد ذلك بوقت قليل الى الكلونيل والضابط مارين فصرح لهما بأنه مكلف من قبل الخليفة قدور بن علال بأن يتعامل معهما في موضوع الفدية بدون علم الأمير بل وراء ظهره وستتم الصفقة مع الخلفاء وأما مقابل الفدية فسيكون تعويضا عن النفقات التي كلفتها تغذية الاسرى .

كانت الدائرة في ذلك الوقت تعاني أزمة مضاعفة في المواد الغذائية بحيث لم يعد يصرف لافراد الجيش النظامي سوى كميات صغيرة من الشعير حينما يوجد شعير كما توقف صرف مرتباتهم وتدهورت حالة أسلحتهم ولم يكونوا يلبسون سوى ثيابا خرقة .

قبل الضباط مبدأ دفع الفدية وبقي تحديد قيمتها اقترح الكلونيل مبلغ 10,000 فرنك وهو مبلغ بعيد جدا عن المبلغ الذي قدمه الخوجة وهو 12 ألف دورو (72000 فرنك) وبعد مساومات رفع الكلونيل المبلغ 30000 فرنك وقال أن هذا يمثل كل ما يملكونه وبعد مساومات أخرى قبل الكلونيل اقتراحا يقضي بأن يدفع مبلغا اضافيا قدره 200 دورو لابن علال ومبلغ 3000 لبقية الخلفاء وكان ذلك في 5 أكتوبر وقد كان الاتفاق يقضي بأن يدفع المبلغ في مليلة بالعملة الاسبانية (6100 دورو) .

وكذلك كتب الكلونيل الى حاكم مليلة الكلونيل دوبنيو ، ليطلب أن يوفر لهم هذا المبلغ ليكون فدية لهم ، ولكنه حدث أن حاكم مليلة لم يستطع تدبير هذا المبلغ ولذلك التجأ الى السلطات الفرنسية في الغزوات وفي 18 أكتوبر كتب الى الاسرى ليبلغهم أن المبلغ تحت تصرفهم وأضاف قائلا «أنني أنتظركم ممدود الذراعين» . وهكذا لم يبق الآن سوى تسريح الضباط الاسرى .

وفي 12 أكتوبر غادر الأمير الدائرة ليقوم بغزوة في الجزائر وعاد اليها في 2 نوفمبر .

وفي 3 نوفمبر استدعى الكلونيل كوربي دوكونور الى الدائرة ليتناول طعام العشاء مع الخلفاء الحاج مصطفى بن ثامي وقدور بن علال ومعهما محمد بن عبد الله المجاهد المعروف باسم بومعزة والحاج حبيب وقد نصحاه بأن يطلب مقابلة الأمير الذي سيزور معسكر الاسرى ويطلب اليه تسريح الاسرى ولكن دون أن يذكر مسألة الفدية .

ولما استقبله في 5 نوفمبر في خيمة ابن علال وسمع طلبه باطلاق سراحهم احتفظ بجوابه ولم يرد بشيء ولكنه في المساء بعث اليه بواسطة الحاج الحبيب بأنه يمكنهم أن يسافروا بمجرد ما يضمن سلامة وصولهم الى مليلة .-

وفي يوم 8 نوفمبر بعث الأمير في طلب الكلونيل الى الدائرة وعلى الساعة السابعة مساء دعاه الى تناول القهوة مع الحاج مصطفى بن ثامي وبومعزة والحاج حبيب وكانت زوجة الحاج بشير وهي من أصل أروبي واسمها جولي هي التي قدمت لهم القهوة وهي تلبس الحجاب .

وبعد المجاملات التقليدية قال الأمير للكلونيل .

« ما دامت فرنسا لا تطالب بك وما دام الجنرالات في الجزائر لا يريدون مبادلتك فما رأيك في أن تخدمني سأمنحك أعلى الرتب وأعطيك أسلحة جميلة وجوادا كريما ». أجاب الكلونيل قائلا : « أشكرك ياسيدي انني أريد العودة الى بلدى لن أخدم سواه أبدا » .

وبعد ذلك تبادل الأمير كلاما مع بعض الحاضرين ثم قال له :

ـ « سترى وطنك » ثم صافحه للمرة الثانية ثم أضاف قائلا « ولكن ماذا أقول أنا لشعبي حينما يطالبني أهلهم بالاسرى الموجودين في فرنسا ؟ »

أجاب الكلونيل كوربي دوكونور .

ـ « قل لهم أنني سأتضرع الى ملك فرنسا لان يكون سخيا مثلك »

ـ ولكن كم عدد الاسرى الذين سيردونهم الي ؟

ـ هذا شيء لا أستطيع تحديده .

ـ هل تسافر عن طريق المغرب ومغنية ومليلة .

ـ عن طريق مليلة .

ـ لماذا عن طريق مليلة ؟

ـ لان العلاقات بين فرنسا واسبانيا طيبة ويمكنهما تبادل الخدمات هذا من جهة ومن جهة أخرى فان مليلة أقرب الى الدائرة .

ـ لو كنت موجودا في الدائرة لما اجترا أخد على قتل الاسرى الفرنسيين وأيضا لما بعث السلطان مولاى عبد الرحمن الي بالتهديد بخطفهم بالقوة انني لا أخاف من هذا الرجل والفرنسيون هم وحدهم الذين يستطيعون هزيمتي .

استمرت هذه المحادثة وقتا طويلا ثم أمر الأمير باحضار العشاء وأكمل كوربي دوكونور بقية الليل في خيمة الحاج الحبيب .

وفي يوم 22 نوفمبر استقبل الأمير من جديد كوربي دوكونور وتناول الحديث موضوع الاسرى الذين اعدموا فأعرب للضابط الفرنسي عن أسفه وفي يوم 23 أهدى الامير فرسا جميلا للضابط وكان قد أهداه في الليلة ثلاثة برانس له وللضابطين الآخرين الدكتور كاباس .

سافر الضباط الأسرى برفقة خده بن الهاشمي أحد ضباط الأمير الذي حمله الأخير رسالة الى ملك فرنسا واخرى الى وزير الحربية .

*

* *

تردد في الصحف الفرنسية أصداء اعدام الاسرى الفرنسيين بتعليقات نستطيع أن نتصور مضمونها عن وحشية العرب الخ ، وبالطبع فقد كان المتهم الأول في ارتكاب هذه العملية هو الأمير عبد القادر ولكن المؤرخين الفرنسيين لهذه الفترة مجمعون على أن الأمير كان بريئا من هذه القضية براءة الذئب من دم يوسف ، والسلطات الفرنسية نفسها نفسها مقتنعة بهذه الحقيقة والأمير نفسه أكدها للكلونيل كوربي دوكونور حين ودعه وأعرب له عن أسفه كما رأينا قائلا أنه لوكان موجودا في الدائرة لما وقعت هذه الفعلة .

ونحن نذكر أن التنفيذ وقع في يوم 24 أبريل 1846 على ضفة ملوية وكان الأمير قد غادر الدائرة منذ أوائل سبتمبر ، وبعدما قرر مصير معركة سيدي ابراهيم وأسر جيشا صغيرا عند عين تيموشنت واصل زحفه في اتجاه الشرق والجنوب ، وقد كان وقت وقوع الحادث بالتحديد في

غررة بولاد نائل أى على مسافة 680 كيلومتر من الدائرة .

وفي 20 مارس سنة 1846 بعث الى الدائرة . من أولاد سيدي الشيخ بخلفائه الحاج مصطفى بن ثامي والبركاني ومعهم المرضى والجرحى وقد بعث معهم بأمر الى الخليفة بوحميدى بأن يلتحق به على رأس القوات المسلحة غير الضرورية لحماية الدائرة وقد وصل الخليفتان الى الدائرة في 6 ابريل . كانت بعض القبائل قد غادرت الدائرة والبعض الآخر كان متخاذلا ، فلم يعد قادرا على القتال في الدائرة سوى كتيبة يبلغ عدد أفرادها 500 وهذه الكتيبة كانت مشغولة بعبء ثقيل وهو حراسة 300 أسيرا الذين تبرأت منهم حكومتهم وأنكرهم رؤساؤهم العسكريون في الجزائر وبالاضافة الى تجميد الاسرى الفرنسيين لهذه القوة المقاتلة فقد كانوا غالة على تموين الدائرة التي كانت تمر بأزمة في المواد الغذائية .

ومسألة قتل الاسرى كانت موضوعا للجدال والنقاش طويلا ومن البديهي أنه لو كان هناك أمر مكتوب من الأمير بقتل الأسرى لنفذ بدون جدال أو نقاش ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان الأمير رجل متدين ويعرف جيدا أحكام الشريعة التي تتعلق بالاسرى وهو بدينه لم يكن ليقتل نفسا واحدة بغير حق شرعي فكيف بمئات .

وفي سياق مقتل هؤلاء الاسرى كتب محمد بن الأمير في تحفة الزائر يقول :

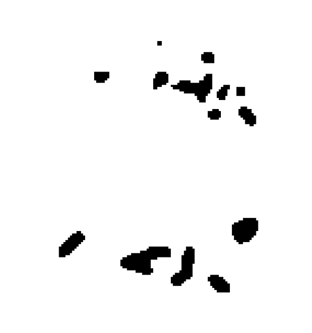
وارتحل عنهم (أولاد سيدي الشيخ) مغربا الى دائرته وكانت على نهر ملوية فيما وراء جبل بني يزناسن ولاول وصوله أخبروه بقتل الاسرى الفرنساويين المستولى عليهم في واقعة الغزوات وتيموشنت فأسف لذلك وتكدر ووبخ الخليفة على الدائرة الحاج مصطفى بن التهامي فاعتذر عن ذلك باعذار واهية أشدها دسائس السيد محمد البوحميدى .

ويمضي ابن الأمير فيقول :

فافتكر السيد مصطفى لعمل واسطة تخوفهم (بني عامر) من الخروج فلم ير بحسب فكره أحسن من ذبح الاسرى الفرنسيين الذين سلمهم الأمير له واوصاه بحسن معاملتهم وظن أن ذلك الأمر يؤخر العرب عن الخروج من الدائرة «والحق يقال أن هذا الفعل خارج عن العدل ولولا ما أشتهر به الأمير من حسن المعاملة للاسرى لظن الناس أن له دخلا في هذا الأمر .» ١

*

* *



فهرس الموضوعات

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية — 1986

هذه الموسوعة التاريخية للشباب تهدف الى تعميم الثقافة التاريخية الوطنية في أوساط الشباب الذي يبدو اليوم أكثر تعطشا للمعرفة عامة وللتاريخ خاصة .

وإن توافق إصدار هذه الموسوعة مع احتفالات الذكرى الثلاثين للثورة التحريرية الكبرى ، لمن شأنه أن يبعث فينا روح التطلع الى مواصلة هذه المسيرة من أجل تحقيق أهداف الثورة الشاملة ولأجل بلوغ الغاية القصوى المتمثلة في الثورة الثقافية الشاملة .

د . محمد الطاهر العدواني

